وهذا أيضا سوف يمر

وهذا أيضا سوف يمر

رواية

فرح عادل رشاد

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 2020/2342

I.S.B.N:978- 977-6640-79-5

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

فرح عادل رشاد

وهذا أيضا سوف يمر

رواية

الإهداء

. إلى أمي وأبي اللذين تعلمت منهما أنا وأختي أن كل شيء سوف يمر..

. إلى زوجي الذي خضنا معا الكثير حتى تيقنت مما تعلمته من أمي وأبي..

. وإلى أولادي أحب أن أذكركم أنه مهما ضاقت بكم الدنيا فإن هذا أيضا سوف يمر..

وهذا أيضا سوف يمر...

تأليف: فرح عادل رشاد

كان صباح الأول من يوليو عام 1975حين استيقظت فريدة من النوم لتطل من شباك حجرتها وهي ما زالت مستلقية على السرير لترى أمامها برج إيفل فترتسم على وجهها ابتسامة تخفي وراءها الكثير من الأسرار ثم تلتفت إلى جانبها لتجد حسن الذي لا يزال غارقا في نوم عميق.

تخرج فريدة إلى شرفة حجرتها تنظر حولها إلى المدينة الساحرة ثم تنظر إلى حسن مجددا وقد اختفت الابتسامة التي كانت تضيء وجهها الذي طالما لم يحتاج إلى شيء ليضيئه، فقد كان وجهها دائما يشع منه النور وعيناها يملؤها حب الحياة فكانت عيناها مرآة لروحها التي لا تهدأ فكانت دائما تسعى لاكتشاف أشياء جديدة وتجربة الأشياء المختلفة، حقا كانت فريدة.

يستيقظ حسن لينظر إلى العشق الذي تملكه بجنون سنوات عمره بأكملها ولم يستطع أبدا أن يسيطر عليه مهما بذل من محاولات، ذلك العشق المتجسد في تلك المرأة الواقفة أمامه في الشرفة ترتدي الروب الأبيض وتعلوها السماء الزرقاء المليئة بالسحب البيضاء ويظهر جزء صغير من برج إيفل وكأنها لوحة مرسومة أمامه ولوهلة شعر وكأن فريدة تعمقت أكثر في الصورة لتمتزج هي والسحاب ليفترشان السماء معا فطالما كان يراها عالية في السماء وكأنها ليست من أهل الأرض.

وسرعان ما ذهب إليها في الشرفة فمنذ متى وهو كان يراها ولا يسارع بالذهاب إليها..

حسن: التوتر بدأ ولا أيه؟

فريدة: مانمتش من إمبارح، أنا اللي هون عليا الأيام اللي قضيناها على السفينة وإحنا جايين أنى هشوف الولاد، قولي أنت بقى أيه اللي هيصبرني وإحنا راجعين؟

وكان خوف فريدة من البحر يصل إلى درجات مرضية، فهو يسيطر عليها كلية وتعجز تماما عن التحكم فيه.

فريدة: كان لازم يعنى ندخل الأولاد جامعة في فرنسا ونفضل رايحين جايين كده، ما كانوا معانا..

حسن: خلاص بقى مالوش لازمة الكلام ده دلوقتى، وبعدين أدينا سافرنا مع نادية ومنير واتفسحنا وانبسطنا..

وما كان يجمع بين نادية وفريدة كان أكثر من مجرد صداقة، كانت كل منهما ملجأ للأخرى، كان بينهما إشارات خاصة بهما لا يقوى أحد على فك شفرتها بل كانت لهما لغة خاصة بهما غير لغة البشر المتعارف عليها بين الناس والأكثر من ذلك إنها كانت أحيانا لغة صامتة دون الحاجة إلى التفوه بكلمات.. فكانت مجرد نظرة عين من إحداها يتبعها إيماءة رأس من الأخرى فيكون قد حسم الموضوع بينهما دون أن يتفوها بكلمة.

***

أستأجر توفيق سيارة فخمة أحدث موديل لتنقله هو وزوجته رجاء وابنهما رمزي إلى السفينة العائدة من باريس إلى مصر.. وكانت رجاء في ذلك اليوم سعيدة لدرجة غير مسبوقة، فهي كانت دائما متحفزة، متربصة وكعادتها متعالية على جميع من حولها ولكن عودة رمزي إلى مصر بعد غياب دام لأربع سنوات كان له قدرة ساحرة على تلاشي كل تلك الصفات وكأنها لم تكن أبدا من صفاتها اللصيقة بها ولم يكن يقوى على رجوعها مجددا غير خوفها من غياب رمزي مرة أخرى ولكن

في تلك الحالة ستعود صفات رجاء الخبيثة أشرس من أي وقت قد مضى.

رجاء: أنا الفرحة النهاردة مش سيعانى، البيت هيرجع ينور بعد ما كان مضلم أربع سنين..

توفيق: أنت لو فاكر إنك لما ترجع مصر أكبر همك هيكون الشغل تبقى فاهم غلط أنت يادوب هتخلص شغلك هتلاقي أمك وقفالك على الباب مستنياك ومش هتسيبك غير وأنت راجع الشغل تاني..

ولم يكن توفيق يعلم حينها أن رجاء ظلت منتظرة رمزي عند الباب منذ أن سافر فرنسا ليكمل دراسته رغم تأكدها من عدم رجوعه فكانت هي من أوصلته إلى الجامعة بنفسها.

رمزي: أنتوا أهم حاجة عندي في الدنيا، أنا راجع عامل حسابي أني مواربيش غيركوا، هتلاقيني أول واحد بيوصل الشركة وأخر واحد بيمشى، هتعلم منك بسرعة وهنكبر الشركة ونعملها فرع واتنين وتلاتة وأول ما أخلص شغل هتلاقيني قاعد قدامك مش هسيبك، ده أنا شايلك كمية حكايات قد كده.

وكانت رجاء سعادتها لا توصف وهي تسمع كلمات رمزي التي لم تتمن في حياتها أكثر منها ولو كانت فقط تعلم ماذا كان في انتظارهم، لو كانت فقط تعلم أن تلك اللحظات لن تدوم طويلا، لو كانت تعلم أن ذلك الشعور الذي جمع بينها وبين رمزي ذاهب بلا عودة لكانت تمنت أن يقف بهم الزمن في تلك اللحظة، لكانت تمنت أن ينتهي بها العمر وهي ترى في عينيه كل ما حلمت به يوما في حياتها على أن تستكمل عمرها وقد ذبل الحنين والاشتياق اللذان كانا يشعلان عيناه.

***

وصل حسن وفريدة إلى السفينة وبصحبتهما صديقة عمرها وزوجها منير بعد أن أمضوا رحلة في باريس بين الفسح والسهر أنستهم كثيرا من الهموم التي كانت فشلت جميع محاولاتهم في تناسيها وكأنها لفت معهم العالم فهي متشبثة بهم، عصية على كل محاولاتهم للهروب منها.. ولكن كان لباريس سحر آخر وإنما مهما زادت قوته فهو في النهاية تأثير مؤقت محكوم عليه بالزوال، فقد نجحت في أن تنسي فريدة اشتياقها المرير لأبنائها وكانت خففت عن نادية جراحها المستمرة التي لم تتوقف عن النزيف يوما ولم تمنحها حتى لحظات قليلة تمر عليها دون أن تشعر بألم الحرمان فقط لتستعيد قوتها على المواجهة مرة أخرى، فكان الألم مستمرا دون توقف وكانت هي تواجهه بكل صلابة وقوة أو كذلك كانت تدعي فالحقيقة أن قوتها كانت مصطنعة فكانت جراحها قد قضت على أي قوة كانت تظن إنها تمتلكها في يوم من الأيام ولم يستطع شيء أن يهون عليها جراحها سوى وجود منير في حياتها فقد منحه الله قدرة هائلة على تذويب كل تلك الآلام بمجرد أن تراه عيناها فطالما كانت قصة نادية ومنير يضرب بها المثل فكانت كل الفتيات تحلم بحب مثل حب منير لنادية، فكانت هي كل ما يمتلكه في الحياة وكان هو الحياة ذاتها بالنسبة لها، لم يكن لهما سوى بعضهما أو بمعنى أدق كتب عليهما ألا يكون لهما سوى بعضهما فلم يكن لهما ابن أو ابنة يواسوهما لياليهما الوحيدة، كانت تتمنى أن يكون لهما أبناء يسافرون لرؤيتهم ولو مرة كل عام فكانت نادية ببراءة الأطفال ودون أن تشعر تحسد فريدة على أنها في أخر العام تنال فرصة ثمينة لا تقدر بثمن وهي فرصة رؤية أبنائها فكان لاشتياقها ووحدتها نهاية في ميعاد محدد متفق عليه مسبقا أما وحدة نادية فهي كانت لا تعلم متى بدأت ولماذا فرضت عليها هي بالذات دونا عن كل أقاربها وأصدقائها ولكنها كانت على يقين ألا نهاية لها.

وفجأة انطلق صوت كأنه صراخ حيوان ضخم يعاني ألما مبرحا وانتبهت فريدة إلى أن هذه الاستغاثات لم تكن إلا صافرات السفينة معلنة من خلالها بداية الرحلة، كانت هي في حجرتها عندما بدأ كوب الماء الموضوع أمامها على المائدة في الارتجاف من حركة السفينة وكانت الرجفة التي اعترته لا تقل شيئا عن تلك التي تملكتها، هي التي عانت طوال عمرها من الرعب من البحر فهي تراه عميقا جدا، مظلما وبالرغم من هدوئه الظاهر إلا أنه يخبئ في باطنه غضبا جامحا فقد يثور في أي لحظة دون مبرر ودون سابق إنذار ليبتلع كل من عليه دون أن يفرق بين طيب وخبيث ولن يشفع لضحاياه مهما ترجوه أو توسلوا إليه ثم يعذبهم حتى الموت، فهو موت بطيء لا رحمة فيه فالغرق هو أقسى أنواع الموت فالغارق يموت وحيدا في ظلمات البحار وبالرغم من تفاقم خوفه وألمه لا يسمح له بالتقاط نفس أخير وبعد عذاب طويل ومحاولات مريرة لا مآل لها إلا الفشل تنتفخ جثته في الماء وتذوب ملامحه من الملوحة ليتحول إلى شخص آخر لا يميزه حتى أقرب الناس إليه ويكون ذلك إن كان من حسن الحظ ليتبقى له جسد.

كانت تحاول فريدة أن تطرد تلك الأفكار من رأسها ومع أنها ظلت تحاول وتفشل على مدار سنوات عمرها بأكمله إلا أن فريدة عنيدة لا تيأس فظلت تحاول أن تشغل نفسها بأي شيء يلهيها عن تفكيرها فيما يقوى البحر الذي يحتضنها الآن على فعله بها لاحقا، فقررت أن تستعد لحفلة العشاء التي تقام كل ليلة على السفينة فكان من تقاليد السفينة أنه مع عشاء كل ليلة تقوم الفرقة الاستعراضية بإقامة عرض راقص للمسافرين.. وكان حسن يعلم بمدى توتر زوجته التي فشلت في أن تخبئه فهو يظهر بوضوح في عينها دون أي إرادة منها وهي ترسمهم وتبرزهم بقلم كحل وكأنها ترسم خوفها وتحدده، يأخذ حسن منها الكحل ويضعه على التسريحة ويمد يده لها فتسارع هي بإمساك

يده وكأنه طوق نجاة أتى لها في الوقت المناسب لينجيها من أفكارها التي تملكتها وجذبتها إلى أعماق البحار المظلمة، نهضت من على الكرسي لتقف أمامه ليرفع شعرها الذي سقط على عينها المليئتين بالرعب ينحني حسن ليقبل جبينها ثم يحتضنها بقوة تحتضنه هي مع تنهيدة عميقة تصدر منها وكأنها تشكره إنه أنقذها في اللحظة الأخيرة وكان دائما حسن هو من يعيد لها أنفاسها في اللحظات الأخيرة.

***

وحينما كان الجميع يستعد لحفلة العشاء، كانت كاميليا الراقصة الأساسية في الفرقة الاستعراضية تضع اللمسات الأخيرة من المكياج في محاولة منها لإخفاء شحوب وجهها وذبول عينيها، وآثار الزمن الذي تركها واضحة على وجهها رغم أن علاقتهم لا تزال في بدايتها فهي بالكاد أكملت عامها العشرين ولكن الزمن معدوم الضمير فهو مثل البحر لا يفرق بين ضحاياه.

وكانت دائما تدعي أن السبب وراء شحوبها وذبولها الدائم هو أن جميل مدرب الفرقة يضع لهم قواعد صارمة للطعام حتى لا يكتسبون وزنا زائدا ويؤثر ذلك على أدائهم في الرقص وذلك غير مواعيد العمل القاسية فهي تتمرن طوال النهار وترقص طوال الليل بلا راحة وبلا طعام كاف حتى تحافظ على وزنها مثاليا، ولكن الحقيقة أن وزنها لم يكن مثاليا والحقيقة أيضا أنه لم تكن تعليمات جميل القاسية أو ظروف العمل هي السبب وراء ذبولها ووراء نومها كل ليلة جائعة وهي تتذكر كم الطعام المتروك في أطباق المسافرين الجالسين ليشاهدوا عرضها المسرحي ورائحة الطعام المنبعثة من البوفيه والتي تعبئ المطعم ما بين المشاوي والمحاشي واللحوم والدجاج والذي يقوم الطهاة بطبخها كل يوم بطريقة مختلفة حتى لا يمل المسافرون من

تكرار الطعام ورغم أن إدارة السفينة تتكفل بإطعام من عليها من عاملين إلا أن عشق كاميليا للطعام يفوق الوجبات التي تقدم لهم على السفينة ويفوق قدرتها على أن تتمالك نفسها وتسيطر على جوعها فكانت كثيرا ما تستيقظ من نومها في عز الليل والبرد وتتسلل إلى المطبخ لتتذوق بعض بقايا الطعام وكانت تنتظر تلك اللحظات بلهفة شديدة فهي أسعد لحظاتها فكان دائما يشكل جزءا من رقصتها على المسرح اختلاسها نظرات سريعة إلى البوفيه وإلى أطباق المسافرين لتكون طبق عشاء لها في مخيلتها ثم تقوم في الليل بعد أن نام الجميع لتشكل ذلك الطبق الذي لم يفارق خيالها لحظة، ولكن لم تكن الظروف دائما في صالحها فليال كثيرة كانت تمر عليها دون أن تشكل الطبق الذي تمنته أثناء رقصتها فكان هناك الكثير من العوائق، فتارة يكون الطهاة سهرانين في المطبخ وتارة أخرى سهي وياسمين باقي أعضاء الفرقة لا يفارقوها في غرفتها حتى طلوع شمس النهار وهم يتحدثون عن المسافرين خاصة الرجال منهم ومن منهم متزوج ومن أتى وحيدا بلا دبلة تزين يده لتمدهم بأمل هم أعلم الأشخاص بمدى بعده عنهم ولكن لم يمنعهم ذلك أبدا من تخيل شكل حياتهم إذا كان لإحداهن فرصة مع أي منهم.

وكان جميل يعلم بسر كاميليا وكان يراقب عينيها وهي تنظر إلى البوفيه وإلى أصنافها المفضلة والتي كانت حرمت منها دون ارتكاب أي ذنب بل كان أحيانا يشدد عليها التعليمات لتشعر أن حرمانها سببه جميل، جميل فقط وليس لأنها أقل من أي شخص آخر ولا تستطيع أن تأكل ما تشتهيه في أي وقت مثلهم والأكثر من ذلك أنه كان أحيانا هو من يتسلل إلى المطبخ ليشكل لها طبقا من أصنافها المفضلة ويأتي به إليها في غرفتها ليرى في عينيها فرحة طالما تمنى أن يراها وليزيل عنها مذلة اختلاس الطعام.. كان جميل يعشق كاميليا منذ أن رآها أول مرة

وهي طفلة صغيرة تبحث عن عمل، عشقها ولم يستطع أبدا أن يعلن عن مشاعره تجاهها ربما لفارق السن الكبيرة بينهما، ربما لأنه لم يشعر قط أنها تكن له نفس المشاعر رغم حبها الشديد له ولكن الأكيد أن مذلة حبه لها كانت لا تقل عن مذلة اختلاس الطعام شيئا.

***

كان قد بدأ المسافرون في التوافد إلى المطعم جلس توفيق وبجانبه رجاء وهي ممسكة بيد رمزي التي تكاد تكون لم تفلتها منذ أن رأته عند وصولهم إلى باريس وحتى الآن وكأنها تخاف أن تترك يده فيرحل عنها مجددا وكانت في ذات الوقت تنظر بعينيها الحادتين إلى جميع من حولها وكانت من عادتها أن تتفحص الجموع لتتأكد أنها وأسرتها الصغيرة يظهرون بأحسن مظهر بين جميع المتواجدين وكانت لا تقبل بالمركز الثاني فالمركز الثاني بالنسبة لها هزيمة هي لن تقبل بها فيجب دائما أن يكون مظهرهم أحسن مظهر وملبسهم أحسن ملبس وأن يكونوا محل نظر وإعجاب بل وحسد كل من يراهم ولكن في تلك الليلة بالذات كان يوجد سبب آخر خفي وراء نظرات رجاء فكانت تبحث لرمزي عن عروس ولأنها كانت تصدق أنه لم تخلق على وجه الأرض من تستحق ابنها فكانت شروطها ومعاييرها لزوجة ابنها المستقبلية تفوق الخيال ولكنها كانت أكيدة أنها سوف تجدها في يوم من الأيام حتى لو اضطرت أن تتنازل عن شرط أو اثنين من أجل سعادة ابنها.

وكان يجلس على المائدة المجاورة لهم حسن وفريدة ويشاركهما العشاء نادية ومنير الذين علت ضحكاتهم حتى لفتوا جميع الأنظار إليهم وبدأت فريدة تطلب منهم أن يكفوا فهي تشعر بعضلات بطنها تتقلص من شدة الضحك ولكن كانت تخفي نادية في عينيها شيئا من الحزن تستطيع أن تراه في ثانية وهي تفتح عيناها التي كانت أحكمت

إغلاقهما بشدة من كثرة الضحك ثم تفتح عيناها مجددا فقط للحظة لترى حزن عميق لا يعلم سببه إلا الله ثم يغلبها الضحك مرة أخرى وكأنه يريد أن يغلقهم سريعا قبل أن ينكشف لأحد كل ذلك الحزن الذي ظل ثابتا أمام كل ضحكاتها وكأن شيئا ما بداخلها كان يعلم أن أيامهم معا قد انتهت دون رجعة.

وكان المسرح قد بدأ في الاستعداد لدخول كاميليا فانطفأت أضواء المطعم وتم إضاءة كشافات المسرح وساد الصمت في المكان واتجهت جميع الأنظار إلى المسرح حتى دخلت كاميليا فعلى مدار سنوات بمجرد أن تطأ كاميليا قدمها أرض المسرح يتوقف الجميع عن الحديث مهما كان شيقا ويتوقف الجميع عن الأكل مهما كان شهيا وينظرون فقط إلى كاميليا وكأن لها تعويذة خاصة بها لا يستطيع أحد مقاومتها ولا يختلف أو يقل ذلك السحر مع مرور الليالي فيظل سحرها في أخر ليلة على السفينة بنفس قوته في أول ليلة. فكانت كاميليا ملكة على المسرح ترقص على عرش مملكتها ولكن من ينظر إليها في تلك اللحظة لا يمكن أبدا أن يتخيل كم كانت تشعر الملكة بالجوع فهي لم تأكل منذ البارحة إلا ثمرتين فاكهة فظلت كاميليا وبكل كبرياء تمارس هوايتها في تشكيل طبق شهي لتأكله بعد أن تنتهي من فقرتها وينتهي المسافرون من العشاء وينام كل من على السفينة وقد نجحت كاميليا في تكوين طبق يتكون من أحلى الأكلات التي حرمت منها طوال فترة انتظار السفينة في ميناء باريس وكان شدة جوعها وأصناف الطعام المفضلة لديها الموجودة ليلتها يدفعانها لفعل أي شيء في تلك الليلة لتحصل على ذلك الطبق الذي رسمته في خيالها والتي كادت أن تكون قد تذوقت من كل صنف منه أثناء رقصها وفور انتهائها من تشكيل طبق العشاء الخاص بها بعد أن اختارت أفخم الأكلات من سيمون فيميه وكافيار وبعد أن شكلت أيضا طبق الحلو لتزيد من جمال ليلتها حتى ارتفع

صوت تصفيق المسافرين وكأنهم يحيونها على اختياراتها للعشاء فقد اختارت أفخم الأصناف وأحلاها وكانت تحيتهم هي من هذا المنطلق وليس من مطلق العرض.

***

انتهي العرض المسرحي وانتهي معه العشاء واتجه جميع المسافرين إلى غرفهم فقد كان يوما طويلا منذ الصباح والجميع في أشد الحاجة إلى النوم والراحة إلا كاميليا التي لن تعرف نوما أو راحة إلا بعد أن تضفي جمالا خاصا على ليلتها بتناول أصنافها العزيزة على قلبها، فظلت كاميليا مستيقظة في غرفتها منتظرة أن تهدأ السفينة وينام كل من عليها حتى تقوم برحلتها الشيقة إلى المطبخ.

فتح حسن باب غرفتهم لتدخل فريدة التي لم تكن تتمنى في تلك اللحظة سوى أن تنعم بنومة هنيئة ودافئة تنسيها كل مخاوفها التي تتضاعف مع حلول الليل، فكانت دائما تقول إن حتى من لا يخاف البحر قط حتما سوف يخاف منه إذا رآه ليلا فما بالك بمن ينام في أحضانه وهو غدار لا أمان له مهما وعد ولكن كان لحسن رأي آخر..

حسن: استني إحنا مش هنام دلوقتي

فريدة: ليه؟

حسن: إحنا هنطلع نقعد على سطح السفينة شوية

فريدة: دلوقتي؟ طيب ما تخليها الصبح

حسن: ومين ضامن يعيش للصبح

كانت نبرته غريبة جدا بالنسبة لفريدة كان يتملكها شعور قوى أن هناك أمرا ما لا يبشر بالخير لكن أيا ما كان فهي لا تريد الصعود إلى أعلى السطح الآن ولكن فشلت كل محاولاتها أمام إصراره العجيب

وكأنه لا يسمعها من الأساس فظل محكم قبضته على يدها وهما يسيران بين ممرات الغرف وكأنه يخشى أن تهرب منه حتى وصلوا إلى أعلى السفينة وما أن لمحت فريدة البحر الذي شعرت وكأنه كان في انتظارها لا ليرحب بها فهو يبادلها نفس شعورها تجاهه إنما ليسمعها صوته الذي كان صداه من القوة أن يرتجف له قلبها وليلذعها ببعض قطرات مائه التي كانت تطاير من شدة الرياح لتصطدم بجسدها وتلسعها برودته حتى شعرت بالغثيان وبدوار شديد في رأسها..

حسن: هلعب معاكي لعبة، اسأليني أي سؤال نفسك فيه وأنا هجاوبك عليه مهما كان، بس أنا كمان هسألك سؤال ولازم تجاوبيني عليه، اتفقنا؟

فريدة: سؤال أيه ولعبة أيه، أنت مطلعني هنا ودلوقتى عشان تقولي نلعب

حسن: تبدأي أنتي ولا أبدأ أنا؟

وكانت فريدة تشعر وكأن أصابه شيئا وكأن علو صوت البحر فاق صوتها فهو يتعامل وكأنه لا يسمعها من الأساس..

حسن: خلاص أبدأ أنا، تعملي أيه لو عرفتي أن الليلة أخر ليلة في عمرك؟ تخيلي أنك ارتكبتي غلطة، ذنب لا يغتفر وأتحكم عليكى بالإعدام وعرفتي إن الإعدام هيتنفذ في خلال دقائق، هتعملي أيه في الوقت اللي فاضلك؟

وكان المشهد بأكمله بمثابة غرفة إعدام بالنسبة لها

فريدة: هو في أيه يا حسن؟ أنا مش فاهمة حاجة

حسن: هتودعى حبايبك؟ ومين هما حبايبك اللي هتختارى أنك تودعيهم؟ ولا هتعترفي بغلطتك وتحاولي تكفري عن ذنبك؟ وهل كل

الذنوب ممكن تغتفر؟ لو قدامك دقايق يا فريدة وتموتي هاتقوليلى أيه؟ مفيش غلطة عايزة تعترفيلي بيها، ذنب عايزة تتخلصي منه؟

فريدة: أنا عايزة أرجع أوضتي يا حسن

حسن: أنتي مش هترجعى أوضتك تاني، أنتي عارفة إن هما قبل ما بينفذوا حكم الإعدام على حد لازم يقولوا له أيه الجريمة اللي ارتكبها، الجريمة اللي خلتهم يعدموه، لازم يفكروه باللى عمله، خونتيني ليه يا فريدة؟

فريدة: خونتك؟! أنت أتجننت؟ أيه اللي أنت بتقوله ده؟

حسن: بلاش تنكري يا فريدة، ماتشوهيش صورتك أكتر من كده في عيني، على الأقل تحلى بالجرأة أنك تعترفى باللي أنتي عملتيه، أنا شوفتك بعينى يا فريدة ولولا كده مكنتش عمري صدقت أن أنتي تخونيني أنا، إمتى قررتي تخونيني؟ إزاى قدرتي؟ إزاى هان عليكى؟

بدأت فريدة أن تتخذ خطوات إلى الوراء فتيقنت أن إنكارها لن يحسن من الموقف بل قد يزيده سوءا فقد رآها كما يقول، فأخذت تفكر سريعا فيما قد تقوله لتهدئته ولكن لم يكن يوجد أي مبررات أو أعذار قد تهدأ ما تراه في عينه من جنون وهياج يفوق جنون البحر وهياجه، وظل هو يقترب منها أكثر وأكثر حتى أمسك بيده ذراعيها الاثنين ليثبتها في مكانها.

فريدة: أسمعني يا حسن

حسن: شششتت، مش عايز أسمع منك حاجة

شعرت فريدة في تلك اللحظات أنها تتحدث مع مجنون فقد عقله

حسن: دورك، اسأليني أي سؤال

وكان قد بدأ جسدها كله في الارتجاف بين يديه، ليس فقط جسدها بل كان قلبها ينبض سريعا وبقوة شديدة حتى تكاد أن تراه يخرج من بين ضلوعها وكانت عيناها مليئتين بالأسئلة، كيف اكتشف خيانتها، متى اكتشفها وهل يعلم من كان يشاركها تلك العلاقة ولكنها لم تقو على طرح أي من أسئلتها وكأن هول الموقف أفقدها قدرتها على النطق فهي لا تقوى على الحديث ولا على التفكير فكان خوفها في تلك اللحظات أشد من خوفها من البحر فلم تعد تشعر به أمام خوفها الشديد من نظرات حسن إليها.

حسن: يعني مثلا اسأليني أنا قررت أعمل أيه بعد ما عرفت

فريدة: حسن اللي بينا أكبر من غلطة أنا غلطتها، أنت لازم تهدى وتسمعني، صدقني هنلاقي حل

حسن: أنا خلاص لقيت الحل، كنت مرة قريت أن الواحد لو بيغرق ميقاومش، ما يعفرش مع المياه، أنت كده هتبقى بتعذبى نفسك أكتر

فريدة: أبعد عني يا حسن

حسن: متخافيش الموضوع مش هياخد وقت طويل، مهما طال مبيتعداش الدقايق، المهم تسيبي نفسك

فريدة: أبعد عني يا حسن بقولك

ثم بدأت أن تصرخ وتستغيث بكل ما فيها على أمل أن يسمعها أحد، فسرعان ما وضع حسن يده على فمها ليكتم صوتها وقد اتسعت عيناها رعبا فقد قرر أن يقتلها غدرا، فكان يقصدها هي حينما قال "ومين ضامن يعيش للصبح" ثم رفعها من على الأرض وهي تقاوم بكل ما فيها من قوة وتدفعه عنها ولكن ما من ضربات كانت سوف تألمه أكثر مما رآه وما من دفعات كانت سوف ترجعه عن قراره، فتفشل

جميع محاولاتها في الإفلات منه حتى يتمكن من وضعها على الناحية الأخرى من السور وكأنه أوقفها على كرسي الإعدام ولا يتبقى سوى أن ينفذ عليها حكمه بإعدامها.

كانت كاميليا في ذات الوقت لا تفكر سوى في الطبق الذي ينتظرها في المطبخ وتظن ببراءتها المعتادة أن كل من على السفينة نائمون، فعادة ما تكون أول ليلة على السفينة هي الأهدأ فبالتأكيد يرغب الركاب في قسط من الراحة بعد يوم طويل وكذلك جميع العاملين على السفينة فخرجت كاميليا من غرفتها وهي ما زالت ترتدي زي العرض فجوعها وحماسها منعاها حتى من أن تغير ملابسها، كانت تسير وقلبها يقفز فرحا بعكس خطواتها التي كانت هادئة وصامتة حتى لا يشعر بها أحد فظلت تسير على أطراف أصابعها حتى لا يسمعها أحد حتى وصلت إلى أعلى السطح لترى مشهد غير الذي جاءت من أجله، المشهد الذي لن تنساه طوال حياتها، الذي سيظل يعذبها ليلا ونهارا ويسرق النوم من عينها، المشهد الذي سوف يزيد من ذبولها وشحوبها رأت فريدة وهي على الناحية الأخرى من السور متشبثة بيد حسن رافضة أي محاولة منه لإفلاتها تترجاه وتتوسل إليه وتتطاير الدموع من عينيها من شدة الرياح ليشعر بها على وجهه في محاولة منها أن تفيقه مما هو على وشك أن يقدم عليه، وكانت نظرة عينيها له لا تنسى فكان بها مزيج من الرعب والشجن والشعور بقرب النهاية والأسف والتوسل والكره والشعور بالغدر وظلت تتوسل إليه وتترجاه وتستحلفه بأبنائهم وتعتذر له مرارا وتكرارا حتى بدأت تصف ذاتها بأسوأ الصفات والعبارات فربما يثنيه ذلك عن قراره ولكن لم يوجد على وجه الأرض ما قد يشفع لفريدة عند حسن فقد اتخذ قراره منذ البداية ولولا أن شعورها بالرعب قد أعماها ولولا حب الحياة والخوف من المصير المظلم الذي ينتظرها وحدها في ظلمات البحر ليجعل منها عبرة لما

كانت توسلت إليه أو ترجته، فكانت نظرة عينه تدل على أنه قد حسم قراره منذ البداية ولن يعدل عنه مهما أذلت نفسها أمامه، وما أن تأكدت فريدة من ذلك الخاطر حتى توقفت عن التذلل والترجي وفي تلك اللحظة اتخذ الاثنين ذات القرار بأن حرر كل منهما الآخر من قبضته إلى الأبد وسقطت فريدة في الماء لتسقط معها أشياء كثيرة كان أبرزها براءة عينين كاميليا التي اختفت إلى الأبد وكأنها غرقت مع فريدة، ويبدو أن فريدة قد أنصتت جيدا لكلام حسن من أن عليها ألا تقاوم أو تعافر حتى تهون الأمر على نفسها وحتى لا يستغرق موتها وقتا أطول فكلما استسلمت كلما هان عذابها، فاختفت في الماء وكأنها تركت نفسها للبحر يفعل بها ما يشاء دون أي اعتراض من جانبها حتى ينتهي الأمر بسلام، فسواء قاومته أو لا فالنهاية واحدة، ولم تحاول تلك المرة أن تترجاه أو تتوسل إليه فإذا كانت كل سنين العمر والحب والعشرة والذكريات التي جمعتها بحسن لم تكن شفيعة لها عنده، فماذا تبقى ليشفع لها عند البحر.

وكان ارتعاش كاميليا في تلك اللحظة لا يقل عن ارتعاش فريدة شيئا ورغم محاولاتها المستميتة في ألا يراها حسن ولكن قد شل خوفها عقلها عن التفكير تماما مثلما حدث مع فريدة حتى بدأت تأخذ خطوات إلى الوراء متناسية خلخالها الذي يزين كعبها وكان حسن يسلط كل تركيزه على الماء الذي اختفت فيه فريدة وكأنه ابتلعها ليمحي وجودها وكأنها لم تكن يوما هنا حتى رن خلخال كاميليا ليلتفت وراءه سريعا ويتجه نحو مصدر الصوت لتركض كاميليا ويركض هو وراءها ولكن بحكم عملها على السفينة فكانت تعلم بخباياها مما ساعدها في الإفلات منه دون أن يرى ملامح وجهها لكن كان هو من الدهاء أن يجمع عنها بعض المعلومات المهمة في تلك الدقائق القليلة التي رآها فيها من ظهرها، وكانت من أهم المعلومات التي عرفها عنها

أنها مثلا واحدة من الراقصات في الفرقة الاستعراضية وحتما سوف يكون خلخالها الذي حفر في ذاكرته شاهدا على صاحبته ليثبت له بما لا يدع مجالا للشك من التي شهدت على جريمته.

***

وكانت تلك الليلة من أطول الليالي بالنسبة لحسن وكاميليا، فكانت بالنسبة لكاميليا هي الليلة التي انقلبت فيها دنياها رأسا على عقب، كانت نقطة تحول في حياتها، فكاميليا التي خرجت من غرفتها وهي تسير على أطراف أصابعها لا تحلم سوى بطبق عشاء يزين ليلتها غير كاميليا التي عادت إلى غرفتها ركضا ويكاد يكون صوت خلخالها قد أيقظ كل من على السفينة، فانقسمت كاميليا لاثنتين كاميليا قبل وكاميليا بعد.

أما بالنسبة لحسن فكان ما زال أمامه ليلة طويلة يبحث فيها عن زوجته المختفية ويستغيث بكل من على السفينة ليساعدوه في إيجادها وبالفعل بدأ في تنفيذ خطته، ولكنه ذهب أولا إلى غرفته ليشرب كوبا من الماء في محاولة منه لاستعادة أنفاسه التي كانت قد انحبست مع أنفاس فريدة في أعماق البحر ثم قام بإشعال سيجارة في محاولة أخرى لتهدئة أعصابه، فكانت يداه ترتجفان بشدة مثل يدان كاميليا، فكانت تلك الليلة هي نقطة تحول لهما هما الاثنين، لم يعود أي منهما كما كان من قبل، فانقسم هو أيضا لاثنين حسن قبل وحسن بعد.

وما أن أشرقت شمس الصباح التالي حتى كان حسن قد بدأ في تنفيذ خطته، فكان كل من على السفينة من قبطان وعاملين وجميع الركاب إما يبحثون معه عن فريدة أو يواسونه أو يتشاورون فيما بينهم عما قد يكون أصابها، فما بين روايات أنها قد تكون أصيبت بدوار وسقطت في الماء وروايات أخرى تتجه نحو مقتلها ولكن كان الأكيد من بين جميع الروايات أنه لا أثر لفريدة على السفينة.

أما نادية فكانت في حالة صدمة شديدة، رافضة تماما تصديق الأمر الواقع وهو أن فريدة ليست معهم على السفينة، فتملكتها حالة من النكران فكانت الحقيقة أقسى من أن يتقبلها عقلها ويتحملها قلبها بتلك البساطة، فأخذت تؤكد للجميع أن فريدة حتما هنا أو هناك وأكيد سوف تظهر في أي لحظة لتطمئن قلوبهم وتطفئ نارهم.

وقد أصاب حسن الذي كان على يقين أن فريدة لن تظهر مجددا حالة من الجنون، فأخذ يبكي بصوت عال وهو جالس على الأرض وممسكا برأسه، أخذ يبكي كطفل صغير فقد أمه في دنيا غريبة لا يعرف بها أحدا ولا يعلم ماذا سيواجه في تلك الدنيا وحيدا بعيدا عن حضن أمه ثم بدأ جسده كله في الارتعاش خوفا من المصير الذي سوف يواجهه دونها، وكان حسن في تلك اللحظة لا يدعي الحزن فكان كل ما فيه حزين وخائف وكأنه في تلك اللحظة فقط أدرك ماذا فعل بها، أدرك تبعات ما فعله بها، أدرك أنه قتل فريدة، قتل حب عمره، أدرك أنه لن يراها مرة أخرى فيزداد ارتعاشه مع كل فكرة منهن فينتفض جسده بشدة ويلتف حوله ركاب السفينة في محاولات فاشلة منهم لتهدئته، فلن يقوى أحد في تلك اللحظة على تهدئته سوى شخص واحد فقط... فريدة.

أما منير فكان يحاول تهدئة حسن ليستطيع أن يشرح للقبطان ماذا حدث، كيف اختفت فريدة ومتى اختفت. وكان القبطان وقبله منير شديدي التركيز في كلمات حسن التي كانت تخرج منه بصعوبة بالغة فكان لا يقوى على التقاط أنفاسه من شدة البكاء ورغم عدم وضوح كلماته وتقاطعها وعدم تسلسل الأحداث استطاع منير والقبطان أن يفهموا أنه بعد انتهاء العشاء اتجه حسن ومعه فريدة إلى غرفتهم وحينما كان حسن يقوم بالاستحمام سمع فريدة تحدثه من خلف الباب قائلة إنها سوف تصعد أعلى السطح لتستنشق بعض الهواء

فاليوم كان طويلا والجو رائعا وحتما سيكون المنظر جميلا من أعلى السفينة في تلك الساعة، فطلب منها أن تنتظره حتى ينتهي من الاستحمام حتى يصعدوا سويا ولكنها لم تكترث لكلامه مؤكدة له أنها سوف تعود سريعا.

كانت تلك القصة غريبة جدا وغير مقنعة تماما بالنسبة لمنير فهو يعلم مدى خوف فريدة من البحر ويعلم تمام العلم أن المنظر من أعلى السفينة لن ينطوي على أي جمال بالنسبة لها.

دخل القبطان وحسن ومعهم منير الذي لم يصدق حرفا من رواية حسن إلى الغرفة الخاصة بحسن وفريدة بناء على طلب من القبطان للبحث في متعلقات فريدة فربما يجدون ما قد يوصلهم لشيء وبالفعل ما أن فتح القبطان حقيبتها حتى وجد في الجيب الداخلي نسخة من تحاليل خاصة بها تم إجراؤها قبل يومين في أحد معامل باريس.

القبطان: هي مدام فريدة كانت بتشتكي من حاجة يا أستاذ حسن؟

حسن: لا أبدا، فريدة كانت بتحب كل فترة تعمل فحوصات تطمن منها، وإحنا في باريس قالتلي هتعملهم هنا وبعد يومين قالتلي أن التحاليل طلعت سليمة.

القبطان: يبدو أن مدام فريدة محبتش تزعل حضرتك التحاليل بتقول إن مدام فريدة عندها ورم سرطاني.

حسن: فريدة أيه؟

ولم يكن حسن هو الوحيد الذي يعلم أن زوجته لم تكن مريضة فكان منير أيضا غير مقتنع بتاتا أن فريدة قامت بعمل أي تحاليل أثناء رحلتهم في فرنسا وأن التحاليل كشفت أيضا إصابتها بالسرطان فمتى ذهبت لعمل تحاليل وهم لم يفترقوا لحظة فكانوا يتجولون ليلا نهارا

في شوارع باريس هم الأربعة معا، فما بين الفسح والسهر وتجربة الأطعمة الجديدة والمختلفة لم يتركوا بعض لحظة، فمتى ذهبت لإجراء تحاليل وعلى فرض أنها بالفعل أجرت تحاليل فكيف كانت سعيدة، فرحة، دائمة الضحك والتفاؤل وهي للتو علمت بإصابتها بمرض مميت وهي من كانت تعشق الحياة.

ذهب منير إلى نادية وحكى لها عما حدث في الغرفة وعن التحاليل التي وجدوها في حقيبة فريدة وعن تأكده من أنها لم تجر أي تحاليل فهو على يقين أن فريدة لم تكن مصابة بالسرطان وأنها وأن كانت علمت بمرضها فكيف لها أن تكتم ذلك الخبر طوال الرحلة وأن كانت بالفعل علمت بإصابتها وقررت أن تحتفظ بالخبر لنفسها فكيف لها ألا تبوح به لنادية وهي التي لم تخف عنها شيئا منذ أن كانوا أطفالا. ولكن كانت نادية تائهة، تتمنى لو يوقظها أحد من النوم لخبرها أن كل ما حدث مجرد كابوس سخيف وأن كل شيء الآن على ما يرام وأن فريدة في انتظارها أسفل في المطعم ليفطروا ويشربوا القهوة سويا لكن لم يحدث ذلك بل على العكس تماما فقد أتى إليها منير ليزيد من حيرتها وآلامها ويخبرها أن فريدة كانت مريضة سرطان.

ومنذ أن قام حسن بإيقاظها هي ومنير فجرا ليبلغهم باختفاء فريدة وهي صامتة، تسيل الدموع من عينيها في صمت وكأن الخبر شل حركتها، سلب منها قدرتها على اتخاذ أي فعل إيجابي كان أو حتى سلبي، فهي شاردة تسمع ما يقوله منير عن إصابة فريدة بالسرطان وما يرويه حسن عن كيفية اختفائها وأحاديث المسافرين التي اتجهت إلى انتحار فريدة بعد علمها بحقيقة مرضها، وبالرغم من أن نادية كانت هي أيضا على يقين أن صديقة عمرها لم تكن مصابة بالسرطان وبصرف النظر عن كل الروايات المطروحة لكن شيئا ما بداخلها كان يعلم وبشكل قاطع أن فريدة قد رحلت إلى الأبد.

***

كانت كاميليا قد قررت أخيرا أن تخرج من غرفتها، فقد ظلت حبيسة بها طوال الساعات الماضية، خرجت وهي تتلفت يمينا ويسارا تنظر حولها سريعا في كل مكان وكأنها تحاول إخفاء شيء وكانت بالفعل تحاول إخفاء شيء.. شيء كبير جدا ولكن مهما حاولت إخفاءه فهو كان ظاهرا بوضوح يقفز من عينيها فكانت عيناها تنطق بما لا يجرأ لسانها على قوله كانت عيناها تصرخ في وجه الجميع وكأن روح فريدة قد حيت في عينيها لتصرخ قائلة أنا لم انتحر، أنا قتلت غدرا، قتلت بأبشع الصور وأقساها، لا تصدقوا دموعه فهي كاذبة شأنها شأن تحاليله التي لم أجريها يوما، وما أن رآها جميل حتى سألها عما بها فكان هو أقرب الناس إليها، لا يحتاج سوى نظرة في عينيها حتى يرى ما بداخلها وما زاده حيرة من أمره أن النار التي كانت اشتعلت بعينيها لتنير الحقيقة قد انطفأت بمجرد أن مر أمامها حسن مع القبطان، فتأكد في تلك اللحظة أنها تخفي شيئا ما تخاف أن تبوح به بل ويكاد يكون تأكد أن لحسن يدا في اختفاء زوجته.

***

كان القبطان قد أبلغ السلطات الفرنسية بما وقع على إقليمها من حادثة اختفاء وأبلغهم بجميع الملابسات وبما وجوده من تحاليل وبأقوال زوجها، وقد أصدر القبطان قرارا بوقف جميع العروض المسرحية التي تقام على العشاء حتى تهدأ الأمور على السفينة فالوقت الآن غير مناسب لإقامة عروض راقصة وأبلغ قراره لجميل الذي بدوره كان لا يشغله في تلك اللحظة سوى كاميليا.

جميل: مخبية أيه يا كاميليا؟

وما كان جميل في حاجة لأن يكرر سؤاله أو يحاول استدراجها في الكلام وكأنها كانت فقط تنتظره ليسألها لتحكي له هي كل ما رأته بأدق تفاصيله.

جميل: اللي أنتي بتقوليه ده مفيش حد هيعرفه غيري أنا وأنتي بس

ولم تكن كاميليا في حاجة لأي طمأنة من جانبه، فهي لم تكن تسمعه من الأساس وظلت تعيد ما رأته مرة واثنين وثلاثة بكل التفاصيل وكانت في كل مرة تحكيها وكأنها لأول مرة بل وكانت في كل مرة تزداد تأثرا واشتعالا حتى أن وصل بها الأمر أنها بدأت تجسد شخصية فريدة وتمثل له كيف كانت تترجاه وكيف أفلت هو يدها دون أن يبالي لكل توسلاتها.

وكان يحاول جميل تهدئتها فكان يشعر أنها على وشك أن تفقد عقلها في أي لحظة.

جميل: شافك؟

كاميليا: معرفش

جميل: حاولي تفتكري يا كاميليا

كاميليا: مشافش وشي، بس أنا كنت لابسة لبس العرض، أكيد فهم أني واحدة من الفرقة.. أنا خايفة يا جميل.

احتضنها جميل بشدة وكانت تلك أول مرة يحتضنها، فكان دائما يمنع نفسه خوفا من أن ترفضه أو أن يتسبب لها بضيق ولكنه كان متأكدا في تلك اللحظة أنها كانت في احتياج شديد ليحتضنها أحد، أيا من كان ليحاول أن يطمئنها ويخفف عنها، يحتضنها ليشعرها أنها ليست وحدها.

ولم يتركها إلا بعد أن وعدته أنها لن تحكي ما رأته لأي شخص مهما كان وأن هذا الحديث الذي دار بينهم سيظل سرا لا يعلم به سواهم هم الاثنين فقط، ولكن كان إقناعها تلك المرة صعب جدا على عكس إقناعها أن تحكي له من الأساس، فكانت تشعر بذنب شديد، كان وجه فريدة وهي تسقط في الماء لا يفارقها لحظة ولكن أخبرها جميل أن التحقيقات سارية وأنهم لا يحتاجون إليها حتى يعلموا من هو القاتل وأنهم حتما سوف يصلون إليه دون أي تدخل منها، فهذا هو عملهم وهم ليسوا في انتظارها حتى يؤدوه وأكد لها أنهم لا يعرفون ذلك الرجل ولا ما يقوى على فعله بها وأنه لا شك إذا علم أنها هي من رأته وأوشت به أنه سوف ينتقم منها بالذات أنهم جميعا محبوسون على سفينة واحدة.

***

نزل جميع الركاب إلى المطعم مجددا، تلك المرة لتناول الإفطار، فلم يناموا جميعهم سوى ساعتين أو ثلاثة على الأكثر حتى استيقظ الجميع على حالة من الهرج والمرج حينما كان القبطان، حسن، منير، نادية والعاملون على السفينة يبحثون في كل مكان عن فريدة. فكان الجميع في حالة شديدة من التعب ولكن لم يقلل ذلك من فضولهم لمعرفة حقيقة ما حدث وكان قد حان وقت الإفطار فامتلأ المطعم بالركاب ليمارس كل منهم هوايته أثناء تناوله فنجان قهوة في تحليل الموقف والتنبؤ بما قد يكون حدث لفريدة وكأنها تحولت إلى مسابقة فالجميع يتراهنون وينتظرون النهاية ليعلنوا عن الفائز بالرهان الذي استطاع أن يكتشف وحده فقط بحدسه كيف اختفت فريدة وماذا حل بها.

لكن ما يدور من أحداث على السفينة لم يكن كافيا لرجاء ليشتتها عن هدفها الأول وهو انتقاء عروس لرمزي، فحينما كان الجميع يبحث عن فريدة كانت تبحث هي عن العروس المختارة فكانت تتفحص كل

الفتيات بعينيها الحادتين كعيون صقر يبحث عن فريسته حتى وقعت على فتاة جميلة الملامح، أنيقة المظهر، تكاد تفوح رائحة عطرها في المطعم بأكمله، يبدو أن لها مذاقا رفيعا في اختيار ملابسها وتمتلك ما يكفيها لشرائه، كانت ممشوقة القوام، شعرها بني وطويل يغطي ظهر فستانها الأصفر الذي امتد حتى ركبتيها وزينته بحذاء أبيض ذات كعب عال يكاد أن يسرق أنظار كل من رآه، وكانت ويا للعجب تمتلك نفس عينين رجاء فكان لها نفس النظرة الحادة كنظرة الصقر الذي يبحث عن فريسته وكأنهم وجدوا بعضا هم الاثنين في نفس اللحظة، فكانت كلتاهما تبحث عن نفس الشيء وكانت ليلى من الذكاء أن تفهم ذلك على الفور، فأدركت أن هي ورجاء قد وجدوا ما يبحثون عنه في بعض فكانت عيناها الحادتين قد وقعت على رمزي قبل أن تقع على رجاء، وكانت ليلى تشبه رجاء كثيرا ليس في الملامح إنما في الدهاء، في الإصرار على تحقيق الأهداف وفي الشعور المفرط بالذات وإنما كانت لا تشبها وهي فتاة صغيرة ما زالت في مقتبل عمرها مثلها الآن بل كانت تشبهها وهي أم جالسة أمامها تعلم تماما ماذا تريد وكيف ستحققه، فرجاء لم تكن تمتلك عيونا حادة كعيون صقر منذ بدايتها وإنما ظلت عيناها تفقد بشريتها شيئا فشيئا على مدار سنوات عمرها حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن إنما ليلي كانت وكأنها ولدت بعيون صقر تبحث بالفطرة عن فريستها طوال الوقت.

وكانت حادثة فريدة قد زالت عن المسافرين أي حواجز أو كلفة فجعلت بينهم ألفة، شعور مشترك بالرغبة في معرفة حقيقة ما حدث وأين اختفت فريدة وكيف، جمع بينهم موضوع واحد لا يتحدث أي منهم عن موضوع غيره، فكان من اليسير على رجاء أن تجد مجالا للحديث مع وفاء والدة ليلى وشيئا فشيئا يجتمعون على مائدة واحدة ليكملوا حديثهم بالذات وأن رجاء علمت أن ليلى طالبة في كلية الحقوق تدرس في مصر وتسافر هي ووالدتها إلى والدها الذي يعمل في باريس ليقضوا معا أجازة الصيف، كانت دراسة ليلى للحقوق مجالا

واسعا لتوسعة دائرة الحوار، ليعرفوا منها من المختص الآن بالتحقيق وما هي الإجراءات المفترض اتخاذها في تلك الحالة، أخذت رجاء ووفاء يتحدثون ويتحدثون ولم يأخذوا وقتا طويلا حتى نسوا حادثة فريدة من الأساس لينتقلوا إلى مواضيع أخرى تخص باريس وأين يقيمون هناك وعمل والد ليلى إلى عمل توفيق وأين يقيمون في مصر وكانت صدفة سعيدة زادت من شعورهم بالألفة تجاه بعض أنهم جيران في الزمالك ويا للمفارقة فهم جيران في مصر ولا يتعارفون سوى في رحلة في باريس، حتى رمزي وليلى أخذوا يتنقلون بين مواضيع مختلفة كثيرة بين دراستها ودراسته هو في باريس وكيف أنه يستعد الآن للعمل مع والده في القاهرة، وكانت عيون ليلى الحادتين قد نجحت في إيقاع فريستها دون الحاجة إلى بذل أي مجهود، فقد شعر رمزي بانجذاب شديد تجاهها فهي جميلة، حسنة المظهر، ذكية، على قدر عال من الثقافة تعلم كيف تدير حوار وكيف تجذب كل الأنظار إليها، فكانت ورغم أنها أصغر من على المائدة سنا ولكنها كانت هي من تشرح لهم وهي تملأها الثقة بالنفس كيف أن السلطات الفرنسية هي المختصة بالتحقيق وكانت تشرح لهم مبادئ قانونية والمعيار الذي يجعل دولة دون الأخرى هي المختصة وقد طرحت وجهة نظرها أيضا في القضية وهي أنها على يقين أن فريدة قد قتلت وأن من وضع لها التحاليل في حقيبتها كان يريد أن يشد الانتباه إلى أنها انتحرت وأن من وضع التحاليل هو شخص قريب جدا إليها مما يجعله محصور في دائرة زوجها وصديقتها وزوج صديقتها وأنها إذا كانت تعلم تفاصيل أكثر عن علاقتهم ببعض لوضعت يدها على القاتل في ثوان معدودة، كان رمزي معجبا جدا بثقتها في نفسها، ذكائها وجرأتها وكانت تعلم ليلى بشعوره تجاهها فكان ذلك هو ما أرادت تحقيقه منذ البداية.

***

ظلت ليلى عالقة في ذهن رمزي طوال النهار وأخذ يفكر فيها كثيرا وظل جالسا أعلى السطح فربما تظهر مرة أخرى وأخذ يتذكر أسلوبها في الحديث حتى إيماءتها، إشاراتها وحركات يدها وهي تشرح لهم وجهة النظر القانونية ووجهة النظر الخاصة بها، ومع غروب الشمس ظهرت ليلى، صعدت إلى أعلى السطح لتشاهد مشهد الغروب فهي لا تستطيع أن تضيع تلك اللحظة وذلك المنظر الساحر في شفاء والتئام الجروح مهما كانت عميقة ولكن كان يخالفها رمزي الرأي.

رمزي: أنا بشوف أن الغروب حزين، نهاية مش بداية، وأنا مش بحب النهايات.

ليلى: مفيش حاجة ملهاش نهاية، يعني مثلا دراستك وصلت للنهاية، الست اللي مش لاقينها غالبا كده هي كمان وصلت لنهايتها، النهاية جاية جاية، أظن أن أقصى حاجة ممكن نتمناها هي أن نهايتنا تكون جميلة زي الغروب.

وكان يزداد أعجاب رمزي بليلى كلما تحدثت، فرغم عدم إعجابه بالغروب، ولكنه أعجب بوجهة نظرها فيه حتى بدأ أن يشعر بإعجاب تجاه الغروب إذا رآه بعينيها هي، فهي أول من شاركته الرأي في أنه نهاية وأنه أيضا حزين ولكنها أضافت له جمالا آخر، حتى النهاية استطاعت أن تضفي لها جمالا.

لم تكن ليلى فقط هي من تحب مشهد الغروب فكان يشاركها حسن ذلك الشعور، فكان هو أيضا يشاهد الغروب من نافذة حجرته، ولكن فشل الغروب تلك المرة في لأم جراحه فكانت جراحه عصية على الغروب لا يستطيع أن يروضها. وكان ينعكس في عينه ضوء الشمس الذي ارتسم به خياله هو وفريدة ثم تخللهم فجأة شخص غريب يسلمه تحاليل مزورة ويسلمه حسن بدوره نقودا في مقابلها لتغرق تلك

الصورة سريعا في بحر من الدموع ملأت عينه وكأن علت أمواجه لتبتلع تلك الصورة ثم غربت شمس عينيه لتظلم المشهد تماما.

***

كانت ليلة مريرة على كل من بالسفينة فكانت أول مرة ينام حسن الليل وفريدة ليست بجواره وأول مرة تنام نادية قبل أن تحكي لفريدة عن تفاصيل يومها وأول مرة تنام كاميليا بعد أن شهدت على جريمة قتل وأول مرة ينام منير بعد أن انكشف له كذب حسن واختلاقه لرواية كاذبة ولكن في الأغلب أحدهم لم ينام تلك الليلة فالبدايات ليست دائما سعيدة فالبدايات التي تأتي من بعد نهاية تكون حزينة، مؤلمة وغريبة يرفضها الشخص حتى قبل أن يجربها بل أنه يرفض تجربتها من الأساس فقد أعتاد على كل شيء كما كان من قبل ولا يريد به أي تغيير.

ظلت نادية مستيقظة في تلك الليلة وكأنها للتو استيقظت من نوم طويل، سرحت في الأيام التي جمعتها بفريدة منذ أن كانوا أطفالا في المدرسة يرتدون الزي المدرسي المكون من قميص أبيض وجيب نبيتي كاروهات قصيرة ويرتدون عليه حذاء أسود لامع مع شراب أبيض وهن جالسات جنبا إلى جنب على تخته واحدة ثم تقترب فريدة من نادية وهي تهمس في أذنيها خلسة "تيجي نزوغ الحصة اللي جاية" فتهز نادية رأسها سريعا بالموافقة وكان الحماس يشعل عينيها.. ابتسمت نادية وهي نائمة في سريرها فهي تتذكر كل التفاصيل وكأنهم ما زلوا في الفصل وما غادروه يوما، انتظرت هي وفريدة حتى خرج المدرس لتسنح لهم الفرصة للخروج وراءه، كانوا يعيشون تلك اللحظات وكأنها مغامرة العمر وعندما رأتهم مشرفة الدور وهم يتجولون بين الممرات فبدأت أن تنادي عليهما مما زاد من حماسهم أكثر فقد أضافت إلى

مغامرتهم شيئا من الخطورة والمجازفة مما زادها إثارة وجمالا فأخذا يركضان وهم ممسكان بأيدي بعضهما وتركض هي وراءهما وكانت ممتلئة الجسد فكانت وكأن كل جزء منها يركض في اتجاه مختلف وكانا ينظران إليها ليتأكدا من أن بعد المسافة بينهم لن يسمح لها أن تلحق بهما وكلما نظرا إليها كلما علت ضحكاتهما أكثر وأكثر، علت فرحا، علت احتفالا بنجاحهما في تحقيق هدفهما، علت سخرية من المشرفة، علت وعلت كيفما كانت تعلو دائما.

وعندما ذهبت في اليوم التالي إلى المدرسة ودخلت المشرفة لتنادي عليها هي بالذات لتذهب إلى المديرة التي طلبت رؤيتها تملكها الخوف الشديد، فكان أكيد أن المديرة تريد معاقبتها على فعلتها بالأمس لكنها لم تدرك حينها لما هي فقط دون فريدة فقد كانت شريكتها في نفس الفعل وخرجت من الفصل مع المشرفة وهي تنظر لفريدة وهي تشكو لها خوفها وكانت فريدة تحاول بنظراتها أن تطمئنها أنه حتما هناك أمر آخر وظلت عيناهما معلقة في أعين بعض حتى اختفت نادية عن الرؤية، وكانت فريدة محقة، فرجعت نادية إلى الفصل لتلملم كتبها وتعود لمنزلها وكان الخوف الذي تملكها في أثناء خروجها من الفصل قد تضاعف عشرات المرات بل وزاد عليه جرح عميق فقد سرقت منها طفولتها منذ تلك اللحظة، لحظة إعلانها بخبر وفاة والدها فالطفلة التي خرجت من الفصل في ذلك اليوم لم ترجع إليه مجددا فقد غابت إلى الأبد ورجعت مكانها نادية التي اعتادت منذ وقتها مشقة كتم الآلام وتحملها دون شكوى أو أبداء أي اعتراض.

وعندما فشلت كل محاولات نادية وحيلها في أن تسكت رأسها وتخلد إلى النوم نزلت إلى المطعم وكان قد بدأ النهار أن يشقشق وكانت تشعر بألم شديد في الرأس فكان يوم طويل تملأه الأحداث يفتقد لأي راحة، توجهت إلى البار، جلست على كرسي عال أمام الجرسون

وسألته عن أنواع القهوة المتوفرة على السفينة ورغم أنها لا تبالي لأنواع القهوة ولا كانت ممن يعتادون شربها ولكنها قد ملت جلوسها مستيقظة في سريرها، كانت تحاول أن تشغل نفسها بأي شيء آخر فكثيرا ما سمعت أن للقهوة قدرات مميزة في شفاء آلام الرأس وربما في جلب الشعور بالسعادة لشاربها، أخذ الجرسون يشرح لها أنواع القهوة، وكأنه أخيرا سنحت له الفرصة لينقل خبرته وكل المعلومات التي يمتلكها عن البن لشخص آخر، فأخذ يشرح لها الفروق بين أنواع البن حتى التي لم تكن متوفرة على السفينة وبلد المنشأ لكل نوع واختلاف مذاق كل منهم وجودته وكيف أن ليس أي شخص يستطيع عمل فنجان قهوة، فعمل القهوة مزاج تماما كشربها، ووعدها أن يصنع لها فنجان قهوة لم تذق له مثيلا في حياتها ولا حتى في أفخم مطاعم باريس وأخذ يتحدث ويتحدث حتى سرحت هي منه لتعود إلى موطنها الأصلي حيث كانت توجد فريدة، فرجعت مجددا إلى مدرستهما حيث كانا يلعبان بالحوش ولا يشغل بالهن أكثر من تلك اللحظة، لا يسرحان في ماض ولا يخافان مستقبل ولا يخادعان أنفسهما بممارسة حيل لإغفال عقولهما حتى يستطيعا أن يناما، لم يكن النوم مهمة شاقة أبدا ولم يبالوا يوما للفروقات بين أنواع البن ليعلما من أصلحهم لتسكين آلامهم، إن كان لها ما يسكنها، بل كانت لعبتهما التي يلعبانها هي كل ما يستحوذ على تفكيرهما في تلك اللحظة، ثم رن جرس المرواح وكان من عادة الأطفال أن تملؤهما السعادة بمجرد سماع الجرس فكانوا يعدون الدقائق في انتظار تلك اللحظة ولكن كان لنادية وفريدة موقف آخر من الجرس فكانا لا يودان أن يفترقا أبدا وكان ذلك الجرس هو ما يفرقهما فتأتي والدة نادية لتأخذها من المدرسة وكالعادة توبخها على صداقتها بفريدة.

والدة نادية: تاني فريدة

نادية: ومالها فريدة بس يا ماما، أنا نفسي أفهم أنتي مابتحبهاش ليه

والدة نادية: عشان هي مبتحبكيش يا نادية

نادية: فريدة؟! مبتحبنيش أنا؟! طيب إزاي دي أقرب واحدة ليا

والدة نادية: البنت دي مش كويسة يا نادية، شوفي كام مرة قولتلك البنت دي مش كويسة

ثم يرن الجرس مرة أخرى ولكن تلك المرة كان الجرسون هو من يرن الجرس الموضوع أمامه ليلفت انتباه نادية

الجرسون: حضرتك مش معايا خالص

نادية: لا أبدا أنا سمعاك

الجرسون: يعني أكمل؟

نادية: ياريت

وما أن قالت نادية ياريت حتى أكمل الجرسون حديثه سريعا، ربما كان هو أيضا يشعر بالوحدة، بالملل وبالرتابة وكانت نادية هدية السماء له، فلا أحد يبالي بحديثه فهو كان على يقين أن نادية لا تستمع لأي شيء مما يقول منذ أن أخذ في الحديث ولكن لم يضايقه ذلك فمنذ زمن بعيد ولا يبالي أحد أن يسمع له بل الأكثر أنه كان سعيدا أنها غير منصتة لأنه أكيد أنها لو أنصتت لملت وذهبت حيثما جاءت وانتهز تلك الفرصة لينتقل من البن إلى مواضيع أخرى كان يحاول نسيانها هو الآخر بالاستعانة بالقهوة فأخذ يحكي لها عن زوجته المتوفاة وكم يشتاق إليها وأنها كانت هي الوحيدة التي تهتم بأحاديثه عن البن وتنصت لها وربما بأحاديثه كلها، وكانت هي الأخرى عاشقة للبن فكم كانا يحبان تجربة أنواع جديدة ومختلفة معا وكانا يستمتعان بعمل

القهوة فتارة يعمل هو لها قهوتها وتارة تتحداه هي بأنها ستعمل له فنجان قهوة يفوق جمال مذاق قهوته هو، ورغم أنه كان أكيد أن نادية تنظر له وهي في عالم آخر إلا أن ذلك لم يوقفه لحظة فظل يحكي ويحكي على عكس مدرسة إعدادي الواقفة عند السبورة أمام نادية وفريدة تشرح الدرس بينما كانا هما يكتبان في الكشكول الموضوع أمامهم ولكنهما لم يكتبا الدرس وراء المدرسة بل كانا يكتبان لبعضهما كحيلة منهم حتى يستكملا حديثهم أثناء الحصة، فتكتب نادية لفريدة على صفحة من صفحات الكشكول وترد عليها فريدة أيضا كتابة واهمين المدرسة أنهما يكتبان الدرس وراءها ولكن تضحك نادية ضحكة مكتومة لتفضحها أمام المدرسة..

المدرسة: قومي أقفي يا نادية، أنا كنت بقول أية؟

وبالطبع لم تكن تعلم نادية شيئا عما كانت تقول فهي كانت شديدة التركيز في حديثها المكتوب مع فريدة

المدرسة: قولي أنتي يا فريدة كنت بقول أية

وهنا كانت المفاجئة لنادية فقامت فريدة وبمهارة شديدة بإعادة كل كلمة قالتها المدرسة دون أن تخطأ في حرف.

المدرسة: ده آخر إنذار ليكي يا نادية بعد كده هيكون ليا معاكي تصرف تاني

وضع الجرسون فنجان القهوة أمام نادية

الجرسون: دوقي بقى وقوليلي أنا اخترتلك أكتر نوع مراتي كانت بتحبه كانت دايما تطلبه مني

تأخذ نادية منه أول رشفة

نادية: تسلم أيدك، جميلة

ثم تخرج سيجارة من حقيبتها وتبحث عن ولاعة فيسرع الجرسون بإخراج ولاعة وإشعال السيجارة لها، ويشعر بقلة خبرتها في كيفية التعامل مع السيجارة

الجرسون: حضرتك مش مدخنة

نادية: ولا بشرب قهوة

تدخل فريدة على نادية بعد أن أنهوا محاضرتهما في كلية التجارة التي اختاروا أن يدخلوها سويا ليس لمهارتهما الحسابية ولا لاختيارهم مجال عمل بعينه وإنما فقط ليكونا سويا في خلال أربع سنوات الدراسة، دخلت فريدة وهي تحمل صينية كبيرة يملأها أصناف مختلفة من الأطعمة، فتقوم نادية مسرعة من على سرير فريدة لتساعدها في حمل الصينية.

فريدة: ماما انهاردة متوصية بيكي، محشي وفتة وكشك وممبار

نادية: يا بختك بأكل مامتك إحنا لازم قبل ما نتجوز نيجي ناخد دروس طبيخ عند مامتك

فريدة: يا ستي لما نتجوز نبقى نيجي ناكل عند ماما بردو، سيبك بس من الكلام ده ويلا خلصي أكل عشان جيبالك حاجة أحلى من أكل ماما ده كله

نادية: حاجة أية؟!

تتجه فريدة نحو باب الغرفة لتفتحه وتنظر وراءه لتتأكد من أنه لا يوجد من قد يسمعهم أو يعلم بما تنوي على فعله الآن ثم تغلق الباب مرة أخرى ولكن تلك المرة تحكم إغلاقه بالمفتاح.

نادية: أنت قفلتي بالمفتاح ليه؟

تبدأ فريدة في تنفيذ خطتها فتخرج علبة سجائر وهي تنظر لنادية وعلى وجهها ابتسامة عريضة وكأنها وبعد طول انتظار وبذل مجهود هائل أخيرا قد حققت مرادها

نادية: يخرب عقلك يا فريدة، افرضي حد خد باله دلوقتي

فريدة: يا ستي أنتي على طول شايلة الهم كده، محدش هياخد باله ولا حتى خد باله هشيلها للبت الشغالة هو يعني مفيش غيري في البيت، طيب ده أنا حتى آخر واحدة ممكن يشكوا فيها

تقولها فريدة بعد أن وضعت السيجارة في فمها وأخرجت ولاعة، وكان لهيب النيران وهو يخرج من فوهة الولاعة يشتعل في عينين نادية ليضيء لها آخر فكرة طرأت على بالها قد ترجع فريدة عن قرارها فتمسك يدها في آخر لحظة قبل أن تحرق النيران حافة السيجارة وتقول ببراءة الأطفال: الدخان يا فريدة، هيشموا ريحة الدخان

فريدة: يا بنتي سيبيني أشرب السيجارة بقى هما كانوا أهلي ولا أهلك، إحنا في بيتي ودول أهلي لو اتقفشنا هتيجي على دماغي أنا لوحدي، أنتي مالكيش دعوة خالص، ارتحتي كده؟

ورغم أنها لم تشعر بارتياح على الإطلاق، لكنها أيقنت أنه لا يوجد ما قد تقوله ليثني فريدة عن فكرتها فقد سيطرت الفكرة عليها تمام السيطرة، فالتزمت نادية الصمت وظلت تتابع فريدة وهي تشرب السيجارة وكم كانت تستمتع بكل نفس تشربه، وكيف كانت تمسك بالسيجارة بين أصابعها وكأن السيجارة استقرت في مكانها الأصلي، وكأن طوال سنوات عمرها كانت يدها تنقصها شيئا وأخيرا اكتملت، وكيف تأخذ نفسا عميقا وتخرجه من أنفها وكأنها تخرج معه أي قلق أو توتر كانت تشعر به، كانت تشرب السيجارة وكأنها مدخنة شرهة تعلم تماما ما تفعله فهي تشرب السيجارة بكل تلقائية وأريحية دون

أي تصنع وكأنها اعتادت شرب السجائر لسنوات ولكن كانت نادية متأكدة أن تلك المرة هي الأولى بالنسبة لها ولكنها كانت وكأنها تلبستها روح امرأة أخرى تتعرف عليها نادية بل وفريدة لأول مرة.

فريدة: تجربي؟

تهز نادية رأسها رافضة عرضها

فريدة مع أخذ نفس آخر: براحتك

نادية: هستفاد أيه يعني؟

بعد تنهيدة طويلة من فريدة وكأنها ملت رتابة نادية: تجربة جديدة، أول مرة في أي حاجة ليها طعم مختلف، تعملي حاجة مختلفة متخطرش على دماغ حد غير الملل اللي بنفضل نعيد ونزيد فيه كل يوم

تستكمل فريدة حوارها ولكن تلك المرة بعد أن تلبستها مرة أخرى روح المرأة المدخنة التي محت من عينيها أي أثر لطفولة كانت تسكنهم يوما ما، تلك المرأة التي تعلم تماما ماذا تريد وكيف تحققه ولن تمل أو تهدأ حتى تحقق كل ما تمنته يوما بصرف النظر عن مدى مشروعيته: فكرة أنك تعملي حاجة كل اللي حواليكي لا يمكن يتخيلوا أنك أصلا تفكري فيها تخليكي تحسي أنك أذكى منهم كلهم أنك بتلعبي بيهم عرايس مريونت تحركي كل واحد زي ما أنتي عايزة، تحطي كل واحد في المكان اللي أنتي عوزاه يكون فيه وفي الوقت اللي أنتي تختاريه تبقي أنت المتحكمة في الأحداث، أنتي المسيطرة، أنتي اليد العليا اللي بتتحكم في كل حاجة بس محدش شايفها. أنك تسرقي حاجة مش من حقك، دي في حد ذاتها ليها متعة تانية خالص.

نادية: تسرقي؟!

فريدة: سيجارة يعني يا نادية مش بنك، متحبكهاش كده وحياة أبوكي

تمد فريدة يدها لنادية بالسيجارة المشتعلة وهي تقول: أنتي مش بتجربي سيجارة، الموضوع أكبر من مجرد سيجارة، أنتي بتجربي شعور مختلف، بتجربي تكوني واحدة تانية ولو بس لدقايق، فهمتي كلامي اللي قولتهولك؟

ومع أن نادية لم تفهم شيئا قط من كل كلام فريدة ولكنها هزت رأسها مدعية أنها قد فهمت.

فريدة: يبقى هتجربي السيجارة

وكان على نادية أن تجربها لتثبت لفريدة أنها فهمت ما قالته ولكنها على عكس فريدة كانت كطفلة تمسك بالسيجارة فلا تعلم من أين تمسكها وكيف تثبتها بين أصابعها ولا كيف تأخذ نفسا وكيف تخرجه.

وظلت تعلو ضحكات فريدة بينما كانت نادية تسعل بشدة وتدمع عيناها بغزارة، فقد تأكدت فريدة في تلك اللحظة أن نادية لم تفهم شيئا من كلامها وحتى لو كانت فهمته فهي لا تقوى أبدا على تنفيذه على أرض الواقع ليس لشيء إلا أنها لم تخلق لذلك.

يتطاير رماد السيجارة على ساق نادية وهي جالسة أمام الجرسون تشرب السيجارة مع قهوتها فتنتبه من غفلتها ويسرع الجرسون نحوها ليزيل الرماد من عليها.

نادية: محصلش حاجة، أنا كويسة، متشكرة جدا على القهوة

وتهم نادية بالنهوض لتغادر المكان، فتوقفها كلمات الجرسون: متشيليش هم حاجة، كله بيتنسي، الوقت بينسي

نادية: بس أنت منستش مراتك

الجرسون: وعمري ما هنساها، بس بطلت أحزن، شعوري ناحيتها وأنا بحكيلك عنها انهاردة غير شعوري ناحيتها يوم ما ماتت، الأول كنت لما بفتكرها بتألم، إنما دلوقتي الحاجة الوحيدة اللي بتهون عليا هي إني افتكرها، أنا أمنت أنها معايا، حاضرة معايا في كل لحظة وبتشاركني فيها، ولما أتأكدت من الشعور ده بطلت أحزن.

لم تكن نادية مقتنعة بكلامه على الإطلاق ولكنها لم تظهر له ذلك، فكانت نادية دائما مجاملة حتى في أصعب لحظاتها، لا تحب إحراج أحد، فشكرته كثيرا على القهوة وعلى وقته وعلى نصيحته التي لم تنصت إليها تماما ككل حديثه ورغم أنه لم يكن مخطأ في كلامه إلا أنها لم تكن في حالة تسمح لها بمثل تلك النصائح، ثم رحلت بعد أن أشعرته بحكمته التي أكتسبها من خلال محنته فأضافت ليومه لونا وبهجة كان يفتقدهما، كانا كلاهما يفتقدانها.

***

لم ينم حسن أيضا في تلك الليلة، وتشاركهم في ذلك كاميليا فما أن تغمض عيناها حتى ترى فريدة وهي تسقط في الماء، فتنتفض وهي لا تقوى على التقاط أنفاسها حتى كرهت النوم، وفضلت أن تظل مستيقظة مع ما يتحمله ذلك من تبعات على أن تنام ليعذبها شعورها بالذنب.

وكان حسن وكاميليا هم الاثنان شديدي الانشغال ببعض، فكان هو يفكر في كيفية الوصول للفتاة التي شهدت على جريمته وكانت هي بدورها تفكر في نسبة نجاحه في تحقيق تلك الفكرة ثم يجتمعون هم الاثنان في فكرة واحدة وهي إن وصل حسن لكاميليا فماذا سيفعل بها؟

ثم يطرق باب حسن وكاميليا في نفس الوقت ليفتح حسن الباب ويجد القبطان وتفتح كاميليا الباب لتجد جميل. وكان القبطان

وجميل قد حملا نفس الخبر لحسن وكاميليا لطمأنتهم قدر المستطاع، فكانت السلطات الفرنسية قد أمرت بنزول غواصين في ماء المحيط للبحث عن أي أثر لفريدة، بعد تأكدهم بشكل قاطع أنه لا يوجد لها أثر على سطح السفينة، كان القبطان يعلم أنه وبالرغم من قسوة فكرة أنهم يبحثون عن جثة زوجته ولكن فعلى الأقل يكون على علم بما حل بها وكان جميل من ناحيته يحاول طمأنة كاميليا أن السلطات الفرنسية تقوم بعملها وأنه في حالة ارتكاب جريمة فحتما سوف تصل السلطات لمرتكبها، وبالرغم من أن السلطات الفرنسية بالتأكيد لم تبلغ جميل بتلك التطورات على عكس القبطان ولكن استطاع جميل بعلاقاته بعد سنوات عمله الطويلة على السفينة أن يتابع كل ما هو جديد في القضية ليحاول طمأنة كاميليا.

ولكن كانت النتيجة واحدة بالنسبة لحسن وكاميليا، فقد فشل القبطان ومعه جميل في طمأنتهم فظل حسن وكاميليا مستيقظان في غرفتهما حتى شروق شمس النهار.

***

ظلت نادية تجوب في أنحاء السفينة وتجوب في ذكرياتها وكأنها تنتظر أن تظهر لها فريدة في أي لحظة لتعيد لها روحها من جديد، ولما يئست من ظهورها لم تجد ملجأ آخر غير منير، فعادت إليه مرة أخرى في غرفتهم لتجده في غاية القلق ويبدو عليه مظاهر التوتر الشديدة قائلا: أنتي كنتي فين يا نادية.

لا تجيبه ولكن ترتمي في أحضانه وتسيل من عينها كل الدموع التي كانت حبستها بغزارة، ارتمت نادية في حضنه وكأنها وجدته بعد طول غياب، كأنها وجدته بعد أن كانت تظن أنها لن تجده مجددا، بل تملكها لوهلة شعور أنها قد وجدت فريدة فيه.

نادية: بحبه يا فريدة من وأنا عيلة صغيرة.

قالتها نادية وهي جالسة أمام التسريحة، ليعقبها إجابة فريدة وهي تقف أمامها لتضع لها المكياج: فاكرة لما كنتي بتفضلي واقفة مستنياه في الشباك بالساعات عشان بس تشوفيه وهو راجع.

نادية: وياه لما كنت أقابله صدفة على السلم، ولما بدأ يشتغل حفظت مواعيد شغله عشان أنزل أنا كمان في مواعيد نزوله ورجوعه قال يعني بعمل أي حاجة، كنت بدعي ربنا لو بس ياخد باله مني.

فريدة: وأهو خد باله وشكله كده كان واخد باله من زمان كمان

نادية: أنا مش مصدقة نفسي يا فريدة، حاسة أني طايرة من الفرحة

تقولها وهي تحتضن فريدة بشدة

فريدة: طيب اقعدي بقي عشان المكياج كده هيبوظ

نادية: طيب أكدي على حسن ميتأخرش، أنا متأكدة أن هو ومنير هيحبوا بعض جدا لما يتعرفوا على بعض

وصدق شعور نادية فمنذ أن تعارفوا وهم الأربعة لم يفترقوا، جمعت بينهم الكثير من الذكريات، تشاركوا في أحلى الأيام وتقاسموا أكثر الليالي إيلاما، ولكن كان الألم تلك المرة يعتصرهم وحدهم دون فريدة.

منير: تعالي يا نادية ننزل نفطر

نادية: ماليش نفس

منير: اللي بتعملية ده مش هيرجع فريدة أنتي مكالتيش حاجة من امبارح، هننزل نفطر وبعدين نعدي على حسن نطمن عليه

ولم تلق الفكرة استحسانا من جانب نادية، فكانت تشعر بالغثيان من كل ما يدور من حولها ولكن لم يستمع منير إليها فكان اختفاء فريدة هو كل ما يشغل تفكيره، أين ذهبت وماذا حدث ومتى، فهو لم يصدق قصة التحاليل والسرطان، كان على يقين أن فريدة لم تكن مصابة بالسرطان، وأن هناك سرا وراء اختفائها. دخل منير ومعه نادية إلى المطعم وظل ممسكا بيدها طوال الوقت في محاولة منه لتهدئتها، اتجها معا نحو البوفيه وبدآ في ملء أطباقهم.

فريدة: خلاص كده كله جاهز، فاضل بس أغرف الشوربة، دوقيها كده يا نادية شوفي لو ناقصها حاجة

تتذوقها نادية لينكمش وجهها سريعا وتغلق عينيها بشدة ألما لتقول وقد راح عنها صوتها: ناقصها أيه يا فريدة، دي كلها شطة

فريدة: زيادة أوي يعني؟

نادية: خلاص بقى ياكلوها كده وخلاص، هتعملي أيه يعني؟

تتجه نادية ومنير نحو المائدة بعد أن ملأوا أطباقهم

منير: هي فريدة مجبتلكيش سيرة أي حاجة وإحنا في باريس؟

تهز نادية رأسها نافية أن تكون فريدة أبلغتها بشيء

بدأ حسن في أخذ أول رشفة من الشوربة بعد أن تجمعوا هم الأربعة على السفرة وكان يحاول بشدة أن يسيطر على ملامح وجهه من التغيير والتعبير عن مدى حرقان الشوربة، فكان يشعر أنه وضع قطعة من النار في فمه، فأخذ نفسا عميقا كمحاولة لإطفاء النار التي اشتعلت في صدره، ثم يستكمل ليأخذ رشفة أخرى ولكن كلما ازداد حبه لفريدة وعدم رغبته في إحراجها كلما ازدادت النار في صدره اشتعالا حتى فقد قدرته على الاحتمال

حسن: فريدة يا حبيبتي ممكن بس كوباية ميه

فريدة: اه طبعا

وما أن نطق حسن بطلبه حتى سارع منير بطلب كوب ماء هو الآخر وكأنه كان في انتظار أن يبادر أحد بذلك الطلب لينقذه من النيران التي اشتعلت بصدره هو الآخر حتى وصلت إلى رأسه

منير: خليهم اتنين بعد إذنك يا فريدة

تنظر نادية إلى فريدة وهن الاثنتان يحاولان كتم ضحكاتهما التي تعالت في صدورهما بقدر النيران التي تعالت في صدور أزواجهن، شرب حسن ومنير الماء وما أن وضع حسن الكوب الخاص به حتى وجد عيون فريدة أمامه التي لازمت المطبخ منذ الصباح الباكر لإعداد ذلك الغذاء لهما فتراجع عن قراره في ألا يكمل طبق الشوربة وهم بأخذ رشفة أخرى لتشتعل النيران في صدره مجددا ثم نظر إلى منير الذي كان يتباطأ في كل خطواته حتى يفلت من استكمال الشوربة

حسن: مبتاكلش ليه يا منير، أوعى يكون أكل فريدة مش عاجبك

منير: لا إزاي، تسلم إيديكي يا فريدة

ويقترب منير من الملعقة ليوهمهم أنه يأخذ رشفة أخرى من الملعقة ثم يجد عين فريدة تتابعه فيسارع بأخذها كلها وهو يبتسم لها قبل أن تلحظ تهربه، ولكن تلك المرة كانوا جميعهم يكتمون الضحك في صدورهم فكان حسن ومنير يشعرون بذات الألم ولكن كان يتحمله حسن حبا في فريدة، ولا يعلم منير لماذا يتحمل هو الألم غير أن حسن قد ورطه في ذلك، وكانت نادية وفريدة تكتمان الضحك حتى لا يفتضح أمرهما حتى أن بدأ صوت حسن في الحشرجة فبدأ يسعل في محاولة منه لإراحة حلقه ومد منير يده ليأخذ منديلا ليمسح دموع عينيه التي بدأت أن تسيل بغزارة ولم يكن يعلم وقتها إن كانت تسيل من شدة

الحرقان أم أنه كان يبكي بالفعل ثم أخذ في فك ياقة القميص وبدأ ينفخ ليخرج من فمه هواء ساخنا وكأنه دخان الحريق المشتعل في صدره وبدأ في تحريك يده أمام وجهه الذي اكتسب لونا أحمر في ظرف لحظات قليلة ليحاول أن يجلب لنفسه بعض الهواء الرطب ليخفف من لهيب النيران الهاربة من فمه، وما أن وصل حسن ومنير لتلك الحالة حتى انفجرت فريدة ونادية في الضحك ليتبعهم حسن ومنير وتعلوا ضحكاتهم لتملئ أرجاء البيت بأكمله وتطفئ نيران حسن ومنير.

منير: مبتاكليش ليه يا حبيبتي؟

كانت نادية قد نست وجود منير أمامها في المطعم بل قد نست أنها في المطعم من الأساس وكأنها كانت في بيت فريدة على سفرتها، فكان هذا هو بيتها، ملجأها، المكان الذي تركض إليه لتشعر بالأمان، المكان الذي تركض إليه عندما تحتاج إلى صديقة تسمعها.

منير: بصي بقى إحنا مش هنقوم من هنا غير لما تخلصي أكلك كله، مش أنتي عايزة نروح نشوف حسن، يبقى تخلصي أكلك عشان أنا مش هتحرك من هنا غير لما أكلك كله يخلص

نادية: هو أنا لسه عيلة صغيرة يا منير؟

منير: مهما كبرتي هتفضلي طول عمرك في عيني العيلة الصغيرة اللي كانت بتلعب قدام باب العمارة

نادية: ياريتنا فضلنا عيال، أنا وأنت وفريدة، ياريتنا فضلنا عيال

وكان شعور منير لا يختلف كثيرا عن شعور نادية، فكانا وهما يتناولان الإفطار وكأنهما يتناولان نفس حساء الشوربة الذي أعدته فريدة لهم منذ سنوات، فكانت تشتعل النيران في صدورهما حتى تصل لرأسهما، لكن كان الأصعب في تلك المرة أنه لا يوجد وسيلة لتهدئة تلك النيران بشرب كوب من الماء أو غيره، ولم يكن هناك سبب يدفعهم

لتحمل تلك الآلام ولن تطفئ نارهم ضحكاتهم العالية التي كانت تملئ المكان.

***

دخل رمزي إلى المطعم مع توفيق ورجاء وكان رمزي وبالطبع رجاء يبحثون عن ليلى، كل منهم في صمت ودون أن يخبر الآخر، ولكن كانت ليلى تجيد اللعبة فكان لها أسلوبها الخاص بها فبعد أن تأكدت أنها أسرته بسحرها وشغلت كل تفكيره قررت أن تختفي لفترة لتشغل تفكيره أكثر وتجعله يبحث عنها وتجعل نفسها صعبة المنال. وبالفعل ظل رمزي يبحث عنها بين كل الوجوه وفي كل مكان بينما كانت هي في غرفتها تتعمد إبعاد نفسها عن نظره، وغير أن ليلى كانت تقوم بذلك لتعزيز نفسها ولإثارة مشاعره فهي كانت أيضا تستمتع بتلك اللعبة، فهي لعبتها المفضلة، فتختار متى تظهر ومتى تختفي حسب مزاجها الخاص فعندما تختفي تنتظر أن ترى في عينيه لهفة وشوقا وعندما تقرر الظهور مجددا تظهر لترى أن الحياة قد ردت له مرة أخرى بعد أن رآها. ولكن ليس بالضرورة أن تكسب ليلى اللعبة في كل مرة تلعبها فقد تكسبها من لم تشارك في لعبها أو من شاركت دون استئذان من ليلى صانعة اللعبة ودون حتى علم منها هي نفسها.

***

وما أن انتهي منير ونادية من تناول الإفطار حتى توجها إلى غرفة حسن ليشاركاه في أزمته مثلما اعتادا طوال حياتهما، بالذات أن تلك المرة الأزمة لم تكن تخص حسن وحده فكانت أزمتهم جميعا.

دخلا على حسن في غرفته ليجداه على غير عادته تماما، فقد كان دائما حسن المظهر، يرتدي أفخم الملابس، حليق الذقن، يأتي بشعره كله إلى الوراء في صف واحد ولا يمكن أن تجد شعرة منهما خارج الصف، فكان منظما جدا في مظهره وملابسه بل وفي حياته بأكملها

ولكن تلك المرة كان يرتدي بيجامة غير مرتبة وفوقها روب وهو طويل الذقن، كل شعرة في رأسه تتجه في اتجاه مختلف، عيناه تائهة وكأنها تبحث عن فريدة والحقيقة أن كل ما فيه كان يبحث عن فريدة.

نادية: مفيش أخبار جديدة يا حسن؟

ولم يبد حسن أي اهتمام بالرد، فظل جالسا على الكرسي وأمامه نادية ومنير على الأريكة وهو مسلط عينيه على بقعة معينة في الأرض وكأنه يرى فيها شيئا لا يراه سواه وهو صامت لا يتفوه بكلمة، فكان لا يرغب في الحديث بل لا يرغب في وجودهم من الأساس، فكان في حالة صدمة مما فعله هو ومما فعلته هي، هي التي أحبها منذ أن رآها، هي التي وهب لها عمره بأكمله، هي أغلى ما كان يمتلك في الحياة أو هكذا ظن.

لم تتحرك عيناه من مكانها حتى بعد أن طرق شخص الباب فظل كما هو جالسا على الكرسي لا تفارق عيناه الأرض وكأنه لا يرغب في أي زوار جدد فكفى من أتوا وكفى من رحلوا، فهو على غير استعداد أن يفتح الباب مرة أخرى.

هم منير لفتح الباب عندما تيقن أن حسن لن يبرح مكانه، وكان القبطان قد أتى بجواب لسؤال نادية عن وجود أخبار جديدة وحتى ولو لم تكن جديدة بالنسبة لحسن لكن سماع كلمات "الجثة... ظهرت.... أنا أسف... البقاء لله... شدوا حيلكوا" كان له من القوة ما يجعل عيناه تفارق الأرض ويوجههم بشدة في عين القبطان وهو يتفوه بتلك الكلمات، وكان يتملكه رغبة شديدة في أن يقوم بضرب القبطان، فكيف له أن يقول مثل تلك الأخبار بكل بساطة، كيف يعلن في وجهه أن فريدة قد ماتت بكل هذا البرود، ألا يعلم من هي فريدة، تملكته حالة شديدة من الغضب وكأن القبطان هو من قام بقتلها أو هكذا

تمنى حسن، تمنى أن ينفض يده من دمائها، فهو لا يستطيع تحمل ذلك الذنب، لا يستطيع تحمل فكرة أنه هو من قتلها.

أما نادية فمع سماع كلمات القبطان "الجثة... ظهرت.... أنا أسف... البقاء لله... شدوا حيلكوا" كانت الغرفة بأكملها تدور بها، فجلست على الأرض فقد فقدت توازنها وفقدت أي قدرة على حمل جسدها وجلس بجوارها منير وهو يحتضنها بشدة وكلمات القبطان ترن في أذنيه بلا توقف "الجثة... ظهرت.... أنا أسف... البقاء لله... شدوا حيلكوا" لكن تخللهم كلماته هو وفريدة "بحبك يا فريدة" "أوعى في يوم تبعد عني يا منير" "أوعى أنت في يوم تبعدي عني، يوم ما تبعدي عني أموت" " الجثة... ظهرت.... أنا أسف... البقاء لله... شدوا حيلكوا"

***

ودقائق معدودة وكان الخبر انتشر في السفينة بأكملها ليصبح محور حديث كل من عليها، وقررت ليلى الظهور في ذلك التوقيت تحديدا فكانت الأحداث مثيرة فخشيت أن تضيع هي في وسط كل تلك الأحداث فنزلت إلى المطعم حيث كانوا جميعهم مجتمعين.

ليلى: مش قولتلكوا اتقتلت

ولم يكن رمزي راضيا عن اختفائها وظهورها وكأنه كان يشعر أنه مدبر، فلم يبد اهتماما لرجوعها ووصل ذلك الشعور لليلى، ولكنها سرعان ما استطاعت أن تتدارك الموقف فظلت تحدثه وتبدي له اهتماما زائدا مما أراحه نوعا ما وجذب انتباهه لها مجددا وشاركهم الحديث رجاء ووفاء اللتان كانا يساعدانها في تنفيذ خططها دون اتفاق مسبق أو معلن بينهم. أما توفيق فلم يتفوه بكلمة طوال الجلسة فكان يتابع الموقف ويراقب ليلى في كل تصرفاتها وحركاتها، كيف تتعامل، كيف تتحدث وكانت تماما كما نقلت له رجاء الصورة، فكما

نجحت ليلى في كسب رمزي في صفها مرة أخرى نجحت أيضا في كسب توفيق دون أن تعلم أنه قد دخل طرف في لعبتها.

***

ذهب جميل إلى كاميليا التي لازمت غرفتها الشديدة الضيق، فتكاد تحني ظهرك لتدخلها من انخفاض سقفها، ودائما تشعرك أنه لا يوجد مكان لك بداخلها، فتكاد أن تخنقك وتحبس أنفاسك فكانت أشبه بالقفص الذي حبست كاميليا بداخله رغم أن روحها كانت حرة طليقة كروح طير بريء لم يرتكب بحياته ذنبا يذكر، فقد كانت شديدة النقاء والبراءة لكنها حبست في قفص ليسرق منها الشيء الوحيد الذي خلقت لأجله وهو أن تحلق عاليا في السماء. ظلت جالسة منطوية على نفسها تنظر من شباك غرفتها الصغير جدا فهو يخفي وراءه عالما آخر لكن لا يكشف لها سوى جزء ضئيل جدا منه، ظلت تتذكر كل ما حدث، تتساءل وتتعجب لماذا صعدت أعلى السطح في تلك الليلة، لماذا كانت رائحة الطعام المنبعثة من البوفيه تتراقص حولها أثناء أدائها لعرضها على المسرح، لماذا اشتد عليها الجوع في تلك الليلة بالذات، لماذا هي جائعة من الأساس، لماذا لم تنم بالرغم من شعورها الشديد بالجوع مثلما تفعل كثيرا، لماذا لم يفاجئها جميل بطبق عشاء في تلك الليلة وكان هو من يراهم بدلا منها، ولماذا هي أضعف من أن تبوح بما رأته. تساؤلات كثيرة كانت تدور في رأسها لم تكن تمتلك لها أي إجابة حتى دخل جميل ليزيد من الأسئلة سؤالا آخر.

جميل: عرفتي اللي حصل

ولكن كانت أخيرا تمتلك كاميليا إجابة، فكانت هي أول من علم بما حدث فلم تكن في انتظار السلطات الفرنسية لإعلان وفاة فريدة، فقد شهدت موتها بالكامل، ولم يكن ذلك السبب الحقيقي وراء مجيء جميل، فقد أتى ليقنعها أنها عليها أن تذهب معه وسهي وياسمين باقي

أعضاء الفرقة ليقدموا واجب العزاء لحسن كما سيفعل كل من على السفينة، فهي عليها أن تتصرف بطبيعية كما سيتصرف الجميع حتى لا تثير الشكوك حولها، وكانت كاميليا تختنق في صمت وتشعر بالفعل أنها محبوسة في قفص يحركونه كما يحلو لهم، فتارة يضعونه هنا وتارة يضعونه هناك، تارة يضعونه في محل ارتكاب جريمة تسرق نقاءها وبراءتها وتارة يضعونه في غرفة القاتل لتواسيه، ولم تكن تعلم من هو المتحكم في القفص، هل هو جميل بدافع حبه لها أم كانت هي الأقدار من تتحكم فيه، ولم تكن تعلم من يملك مفتاح ذلك القفص الذي طالما كرهته بشدة، وإن كان لهذا القفص مفتاح من الأساس، ولكنها ظلت تحلم باليوم الذي تستطيع فيه أن تلتقط أنفاسها خارجه، ظلت تحلم باليوم الذي تستطيع فيه أن تطير عاليا في السماء.

وظل جميل من جانبه يشرح لها ماذا عليها فعله عند مقابلة حسن، وكان صدرها يضيق وتفقد أنفاسها فقد وصلت لدرجة لا تقوى معها على مجادلته في شيء، فكانت وكأنها تعلن هزيمتها، تعلن استسلامها لفكرة القفص المحبوسة بداخله وتعطيه كل سلطة لتحريكها كما يشاء، فقد سلبت حق الاختيار، فلو كان لها الاختيار لتبدلت الأمور، لكانت اختارت حياة أخرى، حياة بلا ألم بلا جوع، بلا معاناة، بلا فقر، بلا قتل، بلا خوف من قول الحق، ولربما كانت اختارت لنفسها قلبا آخر، قلب ينبض بحب جميل، فكم تمنت أن تبادله نفس شعوره، كم تساءلت وتعجبت من قسوة قلبها تجاهه رغم حبها الشديد له، فكان حبه لها يؤلمها ويعذبها أكثر منه هو، لو كان فقط بيدها الاختيار، ولكن لم يكن لها اختيار سوى أن تذهب معه لتعزية حسن في وفاة زوجته سواء اقتنعت هي بذلك أم لم تقتنع.

***

صعدت كاميليا أعلى السطح برفقة سهي وياسمين مع غروب الشمس، ولم تكن تبالي كاميليا إلى حديثهم أو تشاركهم فيه، فأخذت

سهي وياسمين كعادتهم يشكون حالهم، ففي حالة إقامة العروض يشكون تعبهم وسهرهم الذي لا يقدره أحد، وفي حال وقف العروض يشكون وقف الحال ووجودهم على السفينة ذهابا إيابا بلا مغزى، وكانوا يشكون حياتهم بأكملها، يشكون الشيء وعكسه فربما اعتادوا الشكوى أو ربما لم يعجبهم حالهم من الأساس، لم يعجبهم عملهم كراقصات على سفينة لا يبالي أحد بوجودهم فهم يتمرنون ليلا نهارا ليظهروا في آخر الليلة لمدة خمس دقائق على المسرح خلف كاميليا لا يراهم أحد ولا يهتم بهم أحد، فهم كالأضواء التي تشتعل لتضيء لكاميليا، مجرد خلفية لها ليس أكثر، يأتي بهم القبطان في محاولة منه لتسلية الركاب أثناء تناولهم العشاء في حين أنهم لا يتناولون من الأساس وجبة عشاء أو ربما يتناولون وجبة ولكنها لا تسد جوعهم ولا تملئ أعينهم أمام ما يرونه كل ليلة.

ظهر حسن وهو يسير أعلى السطح وظلت كاميليا تراقبه بشدة، ففي حين كانت رأسها تميل في عكس اتجاهه في حركة لا إرادية منها كانت عيناها تتابعه في كل خطوة يأخذها في حركة لا إرادية منها أيضا، فكانت تحاول أن تبعد عيناها عنه حتى لا يلاحظها ولكن تفشل كل محاولاتها وكأن هناك قوة أعلى منها هي من تعيد عينيها للنظر إليه كلما حاولت إبعادها. اتجه حسن نحو السور الذي سقطت منه فريدة، أسند بيده عليه وانحنى بظهره للأمام وكأنه يتفحص الماء الذي سقطت فيه وكأنه يسألها ماذا حدث بأسفلها، ماذا فعلت هي بفريدة، وكان يتمنى ألا تكون قست عليها، فمهما كان الذنب الذي ارتكبته فهو لم يعطها فرصة للدفاع عن نفسها، لم يسمعها، حاولت أن تشرح له ولكنه رفض مع أن أعتى الجرمين واشرسهم يكون لهم حق الدفاع عن أنفسهم، حق أن يسمعهم الجميع، أن يسمعهم القاضي قبل أن يصدر حكمه ولكنه سلب فريدة ذلك الحق، وخشى أن يكون تسرع في حكمه،

خشى أن يكون قد أضاع فرصة كان من الممكن أن تغير حكمه، وحتى ولو لم تغيره فكان لها الحق في الحديث قبل أن يلقيها في البحر الغاضب بشدة وكأنها خانته هو، فكان متربصا بها في انتظار سقوطها ليثبت لها أن كل ما خافت منه يوم هو حقيقي بل أن الحقيقة أبشع مما تصورت، فمهما خافت ومهما تخيلت هول البحار فكانت لا تستطيع مخيلتها أن تصور لها حقيقة بشاعته وقسوته.

وكانت تتعالى أنفاس حسن ونبضاته بشدة وهو يفكر في الذنب الذي ارتكبه وكانت تتعالى أيضا أنفاس كاميليا ونبضاتها حيث تكاد تصل حيث يقف حسن عند السور، فتتداخل مع أنفاسه ونبضاته هو ليصبحوا وكأنهم قلب واحد ينبض حتى لا يستطيع أن يفرق بينهم أحد، ولو كانت فقط كاميليا تعلم بحقيقة حسن، لو كانت تعلم مدى حبه لفريدة، ومدى جرحه وألمه من خيانتها، لو كانت تعلم أن الحزن الذي تراه في عينه هو حزن حقيقي، عميق جيدا وغير مصطنع بالمرة، لو كانت تعلم أن شعوره بالذنب يقتله حتى أنه يكاد يجعله غير مكترث بمن رأته، بل على الأكثر يجعله يتمنى لو أن تبلغ عنه حتى تخلصه من ذنبه لكانت اطمأنت وأرتاح قلبها من الخوف الذي تملكه في كل خطوة، بل لربما كانت أشفقت عليه من ألم الفراق والغدر وعذاب الذنب.

وما أن استدار حسن حتى شعرت كاميليا أنه استدار لينظر لها هي خصيصا فلم تشعر بذاتها إلا وهي تقوم لتغادر السطح سريعا، فقد كانت على يقين أنه لاحظها وهي تنظر له ولكن الحقيقة أنه بمجرد أن استدار لاحظ أن جميع من كانوا على السطح ينظرون إليه، فهو لم يلحظ كاميليا من الأساس، أخذت هي خطوات سريعة لتبعد عنه قدر المستطاع ولم تقدر حتى أن تنظر خلفها فكانت أكيدة أنها لو نظرت خلفها ستجده لصيقا بها ولم يوقفها شيء سوى ارتطامها الشديد برمزي.

كاميليا: أنا أسفة

رمزي: محصلش حاجة، أنتي كويسة

لم تجاوبه كاميليا إنما نظرت سريعا إلى حسن الذي كان على عكس تصورها ما زال في مكانه ولكن لم يخفف ذلك من توترها فتركت رمزي وظلت تسير سريعا حتى اختفت من على السطح.

***

اتفق جميل مع كاميليا وسهي وياسمين أن يقابلوه عند المسرح في تمام الساعة الثامنة مساء ليذهبوا سويا لتقديم واجب العزاء للزوج المكلوم في وفاة زوجته، وقد وصلوا جميعهم في الميعاد المتفق عليه باستثناء كاميليا التي طال تأخيرها، فظل ينظر جميل في ساعة يده ثم ينظر في اتجاه الباب في انتظار دخولها ولكنها لم تظهر، وكعادة جميل فهو لا يمل أبدا من انتظار كاميليا، فقد ظل ينتظرها سنوات بالرغم من تأكده من عدم جدوى انتظاره فما قد يضيره من انتظاره عدة دقائق الآن.

وأخيرا ظهرت كاميليا ولم يعاتبها حتى على تأخيرها فكان يتمنى لو أن ينتهي انتظاره لحبها ولو بعد سنوات وليس فقط دقائق معدودة ولن يعاتبها أيضا في تلك الحالة.

ذهبوا جميعهم إلى حسن الذي استقبلهم في غرفته، وأخذت جلستهم شكلا مختلفا تماما بعد أن عرفوه بأنفسهم بأنهم أعضاء الفرقة الاستعراضية، فأعطى حسن تركيزا بالغا لكاميليا وسهي وياسمين في محاولة منه للوصول لهوية من تعلم بسره.

جميل: البقاء لله يا أستاذ حسن

ثم تطوعت سهي لفتح مجال للحديث في محاولة منها لإزالة التوتر التي شعرت أنه تلبس الجلسة والجالسين بها: إن شاء الله الحقيقة هتظهر والتحقيقات هتوصل للي عمل كده عشان ياخد جزاءه

فتشد كلماتها انتباه حسن، فهل هي تقول ذلك بسلامة نية لطمأنته أم أنها تريد أن تقول له إنه لا مفر له مما فعل بزوجته.

حسن: أنتي سهي مش كدة؟

وتملكتها سعادة غامرة، فأخيرا تذكرها أحدهم: اه أنا سهي

حسن: وبقالك أد أيه بتشتغلى على السفينة يا سهي؟

سهي: ياه سنين عمري كله

حسن: عظيم، بس أنا عارف إن قواعد شغلكوا صعبة يعني الأكل بمواعيد والنوم بمواعيد

ثم يوجه حديثه إلى جميل قائلا: أنت متأكد إن كلامك كله بيتنفذ ولا بيزوغزا منك؟ مفيش واحدة بتحب السهر ومبتلتزمش بمواعيد النوم؟

وكانت تشعر كاميليا ببرودة تجتاحها من رأسها وحتى أصابع قدميها، وتنظر لجميل وكأنها تترجاه لينقذها مما هما على وشك أن يفعلوه بها.

سهي: لا لو عالسهر ياسمين هي السهيرة اللي فينا، أصل مامتها ولدتها الفجر، بيقولوا اللي بيتولد بالليل بيطلع بيحب السهر

ياسمين: وهو في أيه أحلى من أني أكون لوحدي على السفينة بحالها، أتمشى فيها وأعمل اللي أنا عايزاه ولا كأني صاحبة السفينة

تدخل جميل مسرعا في الحديث بعد أن شعر بخطورة ما تفعله سهي وياسمين، فهم يأذون أنفسهم ويضعون أنفسهم في محل خطر كبير دون أن يعلما بذلك.

جميل: طيب إحنا نسيب الأستاذ حسن عشان يستريح

حسن: لا خالص أرجوك خليكوا شوية، وجودكوا بيخفف عني كتير

ثم ينظر إلى كاميليا التي كانت تشعر وكأنها فقدت صوتها، فكانت تشعر أنها لو فتحت فمها للتحدث لن يخرج صوت وكان التوتر أنساها كل ما قاله لها جميل من تعليمات عن ماذا عليها قوله وفعله وكيف تتصرف وتتعامل وكيف تخفي قلقها الذي فشلت تماما في إخفائه، فكانت تشعر وكأن حسن محقق يحقق مع ثلاثتهن ويلجأ إلى أساليب خبيثة للوصول إليها هي مرتكبة الجريمة فكانت تود لو أن تقوم وتعترف له بما فعلت، تعترف أنها هي من رأته لتزيل الشكوك عن سهي وياسمين ولتخلص من كل هذا الظلام الذي حل بدنيتها دون أن تعلم له سبب.

ثم استكمل حسن استجوابه: وأنتي بقى يا كاميليا معروفة بأية وسط الفرقة؟

وكانت سهي سعيدة جدا بذلك الحوار فطالما تمنت أن يجمعها بأحد الركاب علاقة، أي علاقة أيا كانت شكلها فسارعت بالرد: لا كاميليا بقى بتحب الأكل، دايما تسرق الأكل وتاخده

فيقاطعها جميل مسرعا: جرى أيه يا سهي هو الأستاذ حسن في أيه ولا في أيه؟

حسن: لا خالص سيبها براحتها، أنا اللي سألت

تأخذ كاميليا أنفاسها مع سماع طرق الباب الذي منع سهي من استكمال حديثها عنها، فاستأذنهم حسن ليفتح الباب وبمجرد أن بعد عنهم همست كاميليا لسهي وياسمين بصوتها الذي حبس بداخلها وكلماتها التي أبت أن تخرج منها وكانت في حالة شديدة من الغضب: أنتوا أيه اللي أنتوا قاعدين تتكلموا فيه ده؟

جميل: خلاص يا كاميليا مش وقته

ينضم إليهم توفيق ومعه رجاء ورمزي فقد أتوا أيضا لتعزية حسن وبعد أن كان حسن هو محل نظر واهتمام سهي دخل رمزي لينسيها وجود حسن وينسيها سبب وجودها هي في غرفته، فكانت تتفحصه بكل تفاصيله، فتفحصت ملامحه، ملابسه، حذاءه، ساعته، تمعن التدقيق في مشيته وحركاته وشاركتها في ذلك ياسمين، فكان لرمزي حضور ساحر تنجذب له كل الفتيات بداية من ليلى الفتاة الغنية المتعلمة وصولا إلى سهي وياسمين اللاتي لا يحلمن بأكثر من تلك الصدفة التي جمعتهم وفتحت عليهم سيلا من الأحلام فقط سوف يزيد من مرارة أيامهم، فهي تذكرهم بقدرهم الحقيقي وبمدى بعد أحلامهم واستحالة تحقيقها، أما كاميليا فكانت في عالم آخر، فلم تشعر بوجود رمزي من الأساس لم تكن تفكر إلا في مصيرها وماذا سوف يحل بها بعد أن يكتشف حسن أنها هي من رأته وكانت أكيدة أنه يوما ما سوف يكتشف وحتى لو لم يكتشف فكفى بها الشعور بالذنب فقد أصبحت طرفا في جريمة هي لا تعرف عنها شيئا ولا عن أطرافها شيئا ولا سبب ارتكابها ثم على صوت توفيق فجأة ليشتت أفكارها وهو يتحدث عن رمزي الذي أنهي دراسته في أكبر جامعات باريس ثم وجه حديثه إلى جميل: وحضرتك يا أستاذ جميل كان أيه سبب الزيارة لباريس؟

جميل: لا أحنا بنشتغل على السفينة، أنا والبنات، أحنا الفرقة الاستعراضية

وسرعان ما تبدل حال توفيق ومعه رجاء بعد سماع كلمات جميل فبدأوا يتعاملون معهم بتعال شديد لم يكن ظاهر في البداية، بل بدا عليهم شعور شديد بالضيق وربما أنهم كانوا يلعنون الظروف التي جمعتهم بأعضاء فرقة استعراضية في مكان واحد، فكيف يجلسون معهم، كيف يتحدثون معهم، فمن المستحيل أن يجمع بينهم موضوع واحد، أو أن تربطهم فكرة واحدة، فهم من عالمين مختلفين، وسرعان ما وصل شعورهم ذلك إلى جميل وكاميليا، فشعر جميل أن لا مكان لهم في الغرفة الآن بعد أن دخل توفيق ورجاء فسارع بالاستئذان من حسن للمغادرة بعد أن قام بتعزيته مرة أخرى وهو يحكم بقبضته على يده بشدة وكأن شدة جفاء توفيق أشعرته بألفة تجاه حسن رغم كل ما يعرفه عنه ثم استدار ناحية توفيق ليمد له يده قائلا: فرصة سعيدة يا فندم..

ولكن مد توفيق يده لجميل ببرود شديد وسحبها مجددا سريعا وكأنه خشى أن تتسخ يده من يد جميل وليس فقط أنه ظل جالسا بينما كان جميل يقف أمامه ليصافحه بل أنه ظل جالسا واضع ساقا فوق الأخرى وكأن جميل هو من أخطأ عندما تصور أن له الحق أن يصافحه يدا بيد وكان شعور جميل بالخجل في تلك اللحظة يفوق شعورهم هم بالتعالي وضيقهم من اجتماعهم بهم في مكان واحد بل كان يفوق حدود شعورهم بأكمله إن كان لهم من الشعور شيء فقد شعر بإهانة بالغة لا مبرر لها، فكان كل ذنبه ينحصر في حضوره في نفس التوقيت فكان يظن أنه عندما يصافحه يدا بيد أنه يعلن عن احترامه له ولم يكن يعلم أن توفيق ينظر له نظرة دونية لتلك الدرجة.

وكان يربط جميل بكاميليا علاقة خاصة جدا، فهي كانت شديدة التعلق به وكان له مكانة كبيرة في قلبها، فشعرت في تلك اللحظة وكأنها هي من تسحب يدها خجلا من يد توفيق ولم تتحمل أن ترى الخجل والمهانة في عينين جميل، فهو لا يستحق ذلك، فإن كان ما يحكمنا هو قانون العدل الغائب لتبدلت الأحوال وانقلبت الصورة، فكان توفيق

هو من سوف يسارع ليمد يده ليصافح جميل الجالس على الكرسي واضعا ساقا فوق الأخرى ولكن الفارق الوحيد أن جميل كان سوف يسارع بالنهوض ليصافحه لئلا يشعره بأن هناك أي فرق بينهم، فتلك هي المكانة الحقيقية التي يستحقها كل منهم، فيستحق جميل أن تكون له مكانة مرموقة في المجتمع فهو شخص لن تقابله إلا مرة وحيدة في حياتك ويكون من حسن حظك أن تسنح لك الفرصة أن تقابله ولا يستحق توفيق سوى أن يسعى فقط ليمد يده ليصافح رجلا مثل جميل ولكن لم تكن تلك الصورة هي الصورة الواقعية فكان الواقع أن جميل واقف أمام توفيق محني الرأس، يخجل أن ينظر في عين كاميليا بعد المهانة التي تعرض لها أمامها فقد غاب العدل عن عالمنا كما غابت معان أخرى كثيرة.

كاميليا: البقاء لله يا أستاذ حسن إحنا هنستأذن عشان واضح أن الأوضة ضيقة متكافيناش إحنا الاتنين، المرة اللي جاية قبل ما نيجي علشان نطمن على حضرتك هنبقى نستأذن الأول عشان نتأكد إن لينا مكان.

تعجب حسن من ردة فعل كاميليا فهي ظلت صامتة طوال الجلسة وفي اللحظة التي نطقت فيها كان كلامها بمثابة صفعة على وجه توفيق ورجاء فأعجب جدا بقوتها التي ظهرت فجأة، ظهرت لتداري على ضعفها وقلة حيلتها فكأنها رتبت الكلام كله في رأسها وحفظته جيدا لتقوله مرة واحدة لتدفع عن جميل وعن نفسها وعن سهي وياسمين ما أصابهم من إهانة وكان يرى جسدها وهو يرتجف والدموع تتراقص في عينيها حزنا ولكنها تتوسل إليهم ألا يخذلوها الآن ويسقطوا أمامهم فزادتها تلك الصورة جمالا على جمال، فلم تكن أكيدة من ردة فعلهم وهل من الممكن أن يقدموا فيها شكوى للقبطان وماذا سوف يكون رد فعله إذا أقدموا على تلك الخطوة، ولكنها كانت قد اتخذت قرارها بأنه مهما كان الثمن فهي عليها أن تتحرر من ذلك القفص التي ظلت

حبيسة به طوال سنوات عمرها، ثم غادرت الغرفة بعد أن اكتسبت الكثير فكانت اكتسبت إعجاب حسن بها، اكتسبت شكر وعرفان سهي وياسمين لها، اكتسبت حتى إعجاب توفيق بها فأعجب بكبريائها وعزة نفسها، ولم تكن بحاجة إلى كسب شيء من جميل فكانت قد تملكته بأكمله منذ أن رآها أول مرة ولكن الذي لم تكن تحسب له حسبان ولم يكن مقصود هو إنها اكتسبت رمزي في لحظة فارقة غيرت حياتهم هم الاثنين إلى الأبد دون أن يعلما.

***

صعدت رجاء لأعلى السطح لتشرب مشروبا ساخنا ليبعث بالدفء في جسدها، وكان هذا هو السبب المعلن أما السبب الخفي والحقيقي هو أنها كانت تراقب منير الجالس أمامها ممسكا بيد نادية وكانت تحاول قراءة شفاهه لتعلم ماذا يقول لها بعد أن على صوت البحر ليسليها أي فرصة كان من الممكن أن تجعلها تسمعهم، فكانت تعلم أنهم أصدقاء فريدة وكان لديها فضول أن تعلم ماذا يدور بينهما، ماذا يقولون، ماذا يتوقعون، ما الذي يخبئونه، فكانت هي أيضا أكيدة أن هناك سرا وراء موتها وأنها أبدا لم تنتحر ولكن كانت القصة بأكملها بالنسبة لها بمثابة تسلية للوقت الذي يقضونه على السفينة فكانت تنتظر النهاية وكأنه فيلم يثيرها الفضول لمعرفة خاتمته ليس أكثر ولكن دون امتلاك أي شعور حقيقي تجاه أطرافه، وما أن غادر منير بعد تقبيله لرأس نادية حتى سارعت رجاء بالذهاب إليها..

رجاء: مساء الخير، رجاء يونس، البقاء لله، تسمحيلي أقعد معاكي شوية؟

ولم تعلم نادية هل ذكاء رجاء هو من جعلها تشعر بألفة تجاهها أم أن هي من كانت في حاجة لشخص لا يعرفها ولا يعرفهم جميعا حتى

تستطيع أن تحكي له. فأخذا يتحدثان ويتحدثان، حكت لها نادية عن فريدة وعن مدى اشتياقها لها وكم هو مؤلم الاشتياق، كم هو مؤلم أن ترتبط حياتك بحياة شخص آخر فقط لتستيقظ يوما لتجده قد رحل عن دنياك، كم هو مؤلم الفراق دون وداع، وهل الفراق دون وداع مؤلم أكثر أم لحظات الوداع التي تعلم بها أنك لن ترى ذلك الشخص مجددا هي المؤلمة أو ربما القاتلة، فربما من شدة ألمها وقسوتها تموت أنت قبل من تودعه وإن لم تمت فعليا فالأكيد أن شيئا ما بداخلك سيرحل مع من تودعه لتفقدهما هم الاثنين معا إلى الأبد، ولكن من يجرأ أن يدعي أن الفراق دون وداع أهون؟ ففي اللحظة التي تعلم بها أنك فقدت أعز ما كنت تمتلك يوما في الدنيا قد تشعر لوهلة إنك تفقد عقلك، قد تشعر أنك على مشارف الجنون أو قد تشعر أن كل ما يحدث من حولك هو الجنون بعينه، حينها تتوقف بك الحياة فما قيمة الحياة دونهم، ما جدوى الحياة دونهم، فيوما ما كانوا هم الحياة. فسواء كان الفراق يسبقه وداع أو لا، فالنهاية واحدة، الألم واحد والعذاب واحد.

لم تكترث رجاء على الإطلاق لعواطف نادية الجياشة، فلم تكن تبالي شيئا لمشاعرها أو عواطفها هي فقط كان لديها فضول لمعرفة أسرارهم وحكاياتهم حتى تنجح في الوصول لحقيقة ما حدث قبل وصول السفينة إلى مصر لتكون قد اكتسبت قصة جديدة تحكي عنها إلى أصدقائها عند عودتها.

رجاء: أحكيلي عن فريدة الله يرحمها، إحكيلي عنكوا، أكيد كلامك عنها هيخفف عنك كتير

وسعدت نادية جدا بطلب رجاء، فكانت تتمنى لو تجد شخصا يسمعها، شخصا تحكي له، فهي تحتفظ بكثير من الحكايات التي لو

ظلت تحكيها حتى يصلوا إلى مصر لن تنتهي من حكاياتها، حتى أصبحت نادية هي من تبحث عن رجاء وهي من تحاول التقرب إليها، ففكرة أنهم لا يعرفون بعض ولن يتقابلوا مجددا بعد وصول السفينة كان سبب يدفعها بشدة أن تحكي لها، فحكت لها عن الأيام التي جمعتهما في المدرسة وعن العرض الذي كانا يقومون بتأديته في أخر العام الدراسي وكيف كانوا يتمرنان يوميا لساعات كثيرة وكان تمرينا مرهقا جدا ولكنهم كانا يستمتعان بكل لحظة فيه، وكانا يتمرنان على رقصتهما في أي مكان وأي وقت قد جمع بينهما، في المدرسة، في المنزل وأحيانا حتى في مدخل العمارة وكانا دائما عند نهاية الرقصة لابد وأن يحتضنا بشدة حتى أصبحا معروفين بين زملائهما وبين الأهالي بذلك الحضن وأصبح جزءا لا يتجزأ من العرض فلا يكتمل بدونه وكأنه إعلان عن الوصول لنهاية العرض، وأخذت تقسم لها أنها ما زالت تتذكر كل خطوات رقصتهما حتى الآن وكم كانت رائعة تلك الأغنية التي كانا يرقصان عليها، واندمجت نادية في الحديث حتى بدأت تدندن اللحن وتحرك يدها في حركات انسيابية لتثبت لرجاء كيف أنها ما زالت تتذكر الرقصة وكأنها تؤديها على مسرح المدرسة وبجوارها فريدة وكانت الدموع تملأ عينيها والشعور بالملل يملأ رجاء فهي لا تكترث قط للرقصة ولا لخطواتها ولكنها كانت تعلم أن عليها أن تصبر حتى تكتسب نادية خطوة بخطوة لتصل إلى ما أتت إلى سماعه.

وما أن انتهت رجاء من جلستها مع نادية التي ما كسبت من وراءها سوى صداع شديد وذهبت إلى غرفتها لتنعم ببعض من الراحة بعد الدندنة والرقصات التي لم تكف منها نادية حتى وجدت رمزي الذي كان في انتظارها وهو يستشيط غضبا من طريقة تعاملهما مع الفرقة الاستعراضية، فما أن دخلت رجاء وحاولت أن تتحدث معه بخصوص ليلى حتى فوجئت ببركان من الغضب ينفجر بوجهها وأخذ رمزي يلومها

على أنهم دائما متعالون على الناس ويعاملون كل من هو أقل منهم باحتقار ودونية دون أن يؤذيهم أو يمسهم أحد، فلماذا يجرحون مشاعر شخص هم لا يعرفونه من الأساس، فقط لأنه يعمل بمهنة بسيطة، وكانت رجاء في غفلة من أمرها ولا تكترث لأمر الفرقة لدرجة أنها لم تفهم عما يتحدث رمزي مما زاد من غضبه أكثر وأكثر فمن الممكن ألا ينام ذلك الرجل تلك الليلة من الشعور بالمهانة بينما تقف رجاء في حيرة من أمرها لا تعرف عن ماذا يتحدث من الأساس، فكم هي مغيبة، كم هي قاسية، كم لا تكترث بمشاعر الآخرين وكأنهم ليسوا بني آدمين مثلهم كأنهم لا يشعرون، لا يحزنون ولا يتأذون، وكان رمزي يعلم جفاء مشاعر والديه منذ البداية لكن ردة فعل كاميليا كان له أثر مختلف بداخله فكانت وكأنها سلطت الضوء على قسوتهم وكانت نجحت في رد المهانة فكان من المفترض أن يكونوا هم من يشعرون بالخجل والمهانة ولكن الحقيقة أن رجاء لم تشعر بشيء على الإطلاق بل أنها كانت متعجبة جدا من أن الأمر قد شغل باله من الأساس.

***

كانت كاميليا تحضر كوبين من الشاي في المطبخ الخلفي للمسرح الذي أعد للفرقة ليصنعوا به المشروبات الساخنة والحقيقة هو لم يكن مطبخا بالمعنى المتعارف عليه بل هم فقط من أطلقوا عليه ذلك، فهو عبارة عن حجرة صغيرة جدا لا تساع إلا لشخص واحد فقط ولربما كانت لا تساعه أيضا فمن يقف به يكون نصفه بداخله والنصف الآخر بخارجه، ومبطن ببلاط أبيض متسخ بشدة، تسكن الحشرات بين الكسور التي ملأته ويضيئه مصباح يشع نور أبيض خفيف جدا قادر على أن يبث الكآبة والحزن بكل نفس رأته، يتدلى المصباح من سلك طويل أسود وآخر أحمر مبروم كل منهم حول الآخر وكأنهما برموا بتلك الطريقة ليحكموا إمساك اللمبة حتى لا تقع على

رأس من يصنع شيئا ليشربه، وكان ينبعث من اللمبة حرارة بالغة تكاد أن تلسع من يقف بأسفلها ويشاركها في ذلك البراد الذي يخرج هبوا من كل جوانبه ودخانا كثيفا من فوهته في وجه من يقف أمامه كأنهم تآمروا سويا البراد مع اللمبة على من يحاول إعداد مشروب ساخن حتى لا يقدم على تلك الخطوة مجددا ولكن حب كاميليا لجميل كان كافيا أن يجعلها تتحمل أي مشقة من أجله، فوقفت تعد كوبين من الشاي في أكواب زجاجية كما يحبه هو لتأخذهم وتهرب سريعا من قطعة جهنم التي كانت تقف بها. ذهبت إلى جميل الجالس في المسرح يحاول إخفاء أي حزن أو خجل يشعر بهم ولكن حتى لو نجح في إخفائهم عن أعين الجميع فكيف له أن ينجح في ذلك أمام كاميليا، فهي من تفهمه قبل أن يشرح لها، بل هي من تشعر بألمه قبل أن يشعر به هو.

كاميليا: عملتلك بقى كوباية شاي هتعدلك مزاجك، أنا مش قولتلك منروحش من الأول، إحنا مش زي الناس دي دول كأنهم من عالم ثاني غير عالمنا خالص، بس عارف عالمنا إحنا احلى بكتير دول عايشين تمثيلية، كلهم بيمثلوا على بعض، بيلبسوا علشان يخبوا حقيقة اللي جواهم، بيحطوا مكياج علشان يخبوا بشاعة ملامحهم الحقيقية، الناس دي مرعبة، الراجل لسه قاتل مراته وعامل أنه هيتجنن عليها وهو عارف أن واحدة مننا هي اللي شافته، ارمي ورا ضهرك يا جميل الناس دي ما تستاهلش أبدا أنك تزعل بسببهم.

ولو كانت تعلم كاميليا ما يشعر به جميل لتوقفت عن الحديث فكان قد نسى كل ما أحزنه في تلك الليلة وفيما سبقها من ليال كثيرة وحيدة لمجرد اهتمامها به فرغم أن صوتها كان من الجمال والعزوبة أن ينسيه أي حزن كان قد شعر به يوما ولكن كان يكفيه أنها جالسة بجواره حتى ولو لم تتفوه بكلمة ليمحي ذلك من داخله أي حزن كان

قد شعر به في يوم من الأيام فما كان يتمنى إلا أن تطول تلك الجلسة أطول فترة ممكنة فيظل ناظرا في عينيها الساحرتين وكان جمالهم يكمن في أنها لا تعلم بقوة سحرهم أو بوجوده من الأساس.

كاميليا: ولا الاثنين المجانين اللي جايبهم معانا اللي هيودونا كلنا في داهية، بعد ما كانت الخطة أنه ما يشكش في ولا واحدة فينا الراجل بقى شاكك فينا إحنا التلاتة.

جميل: لا ومش بعيد يقولك الراجل اللي معاهم ده أكيد عارف كل حاجة

كاميليا: إن شاء الله مش هنوصل مصر غير لما يكون مخلص علينا إحنا الأربعة، واحد واحد بالدور

وتعلوا ضحكتهما هما الاثنان التي كانت قد غابت منذ زمن، فمنذ زمن بعيد تملكهم الحزن ليعشش بداخلهم ويستقر وكأنه وجد مأوى لنفسه.

***

استيقظت نادية في صباح اليوم التالي لتجد منير قد أتى لها بالإفطار في غرفتهما ليفطرا سويا، فما أن رآها استيقظت حتى سارع بالجلوس بجوارها على السرير وقبل رأسها ثم أخذها من يدها ليجلسا سويا على المائدة التي أعدها لها المملوءة بأطباق الإفطار ثم صب لها فنجانا من القهوة ووضعه أمامها ثم وجدت نادية نفسها تتحدث دون أن تشعر في موضوع كانا قد أغلقاه بينهما منذ سنوات ولم يحب أي منهما أن يلمح حتى به في وجه الآخر وكأنه حرم عليهما الحديث فيه فكانت جراحه عميقة لدى كل منهما فكأنهما كانا يجتنبان الحديث عنه حتى لا يزيدا من عمق الجرح وقسوته، تحدثت نادية بكل بساطة وكأنها كانت تتحدث عنه طوال السنين التي مرت، تحدثت وكأنه لا

حرمانية فيه فمن الذي حرمه من الأساس، تحدثت وكأنها كانت تفكر فيه طوال الليل وفقط استيقظت لتكمل حديثها.

نادية: تخيل لو كان عندنا ولاد دلوقتي كان هيبقى عمرهم قد أيه، شكلهم عامل إزاي، شبهي ولا شبهك، ولاد ولا بنات، تفتكر وجودهم كان هيهون بعد فريدة؟ أكيد كان هيهون

وكانت كلمات نادية مفاجئة جدا بالنسبة لمنير، قاسية ومؤلمة فمنذ اليوم الذي اتخذا فيه قرارهما بأنهما لا يطلبان شيئا من الحياة غير أن يبقيا سويا ولا يكترثا لأمر الأبناء طالما كل منهم لديه الآخر ولم يتحدث أي منهما في هذا الموضوع مجددا فلم يفهم منير لماذا تفتح نادية ذلك الموضوع في ذلك التوقيت تحديدا فهل أيقظ جرح فريدة جروح أخرى قديمة كانت تخفيها نادية؟ لم يكن أكيدا ولكن الأكيد أن كلمات نادية أيقظت جراحهما التي لم تهدأ أبدا فظلا يسترجعان تلك الذكرى الأليمة والتي تم إعلانهما فيها أنه قد تم حرمانهما إلى الأبد من نعمة كبيرة، وكانا يسترجعانها وكأنهما يشاهدان فيلما في أثناء تناولهما للإفطار ولكنه فيلم كئيب يعلمان نهايته مسبقا ولا يريدان استكماله ولكن في نفس الوقت شيء ما بداخلهما يدفعهما لاستكماله، فكان المشهد الأول لمنير وهو يقود سيارته ويتملكه الغضب الشديد، الغضب من نادية، من الطبيب، من نفسه، من الأقدار ومن العالم الذي يعيش به، العالم الذي حرمه مما منحه للجميع، من لا يستحق قبل من يستحق، يمنحه بكل سهولة في يوم وليلة ويحرمه هو منه رغم أنه أكثر من يستحقه ورغم محاولاته التي استمرت لسنوات فكان كارها لقدره فبأي حق ينجب من لا يريد الأبناء من الأساس، تنجب من اتبعت كل وسائل منع الحمل بعد أن اكتفت بقرطة الأطفال التي أنجبتها، تنجب من حاولت قتل ابنها وهو ما زال متشبثا بها مقرونة روحه بروحها قبل أن يرى الدنيا ولا ينجب هو، هو من مل كل محاولاته البائسة، هو من

يملك مشاعر هائلة تجاه الأبناء الذين حرم منهم فكان ناقما بشدة ويملأه النكران، نكران للحقيقة التي باتت واضحة، الحقيقة التي أعلنها الطبيب في وجهه وأعلنها القدر مرة بعد مرة.

منير: ده دكتور حمار مبيفهمش، مين ده اللي ما ينفعش يخلف هو فاكر نفسه ربنا هو اللي يقول مين يخلف ومين ميخلفش.

نادية: خلاص يا منير إهدى مش مشكلة نبقى نروح لدكتور تاني

منير: أنتي مين قالك عليه الدكتور ده، أنتي بعد كده ملكيش دعوة بالموضوع ده خالص كل الدكاترة اللي بتجبيهم زي بعض مش فاهمين حاجة.

ورفض منير أن يعترف بهزيمته، بضعفه ومرضه فظل متمسكا بالنكران لآخر لحظة وكان أكثر ما يؤلمه حقيقة أنه هو السبب وأن نادية كانت تستطيع أن تنجب ويكون لها من الأبناء ما تتمنى لو لم تكن تزوجته هو كانت تؤلمه تلك الفكرة أكثر من حقيقة عدم إنجابهم نفسها فكم كانت ستكون مرضية أكثر لو كانت نادية هي من لا تنجب، كم كان سيخفف ذلك من العبء الذي يتحمله بل ربما كان زال العبء تماما ولكنه لم يكن يستطيع أن يعترف أمامها وأمام نفسه وأمام الجميع أنه هو من حرمهم من الإنجاب.

كانت نادية ومنير مازالا جالسان على مائدة الإفطار ينظران أمامهما وكأن هناك شاشة عرض تعرض لهما حياتهما وظلا يشاهدان بتركيز شديد وحزن عميق وكأنهما ينتظران معرفة ماذا سيحدث بعد ذلك رغم أن ما حدث كان محفورا بداخلهما ولم ينسونه يوما مهما أنكروه، كان المشهد التالي لمنير وهو عائد إلى المنزل متأخر في الليل بعينين مكسورتين بعد أن اعترف بهزيمته، بعد أن كفوا وملوا من النكران

الذي لا يوجد جدوى منه ليذهب إلى نادية ويرتمي في حضنها وهو يبكي بشدة..

منير: أنا أسف يا نادية كان نفسي أجيبلك عيال، كان نفسي نعمل عيلة مع بعض

نادية: أنت عندي بالدنيا كلها يا منير

منير: فكري كويس يا نادية اللي أنت عاوزاه أنا هعملهولك ومحدش يقدر يلومك على أي قرار أنتي هتخديه

نادية: ما أنا بقولك أهو أنت عندي بالدنيا كلها

منير: يا نادية من فضلك ما تتسرعيش في قرارك، معايا هتخسري كتير، معايا عمرك ما هتبقي أم، عارفة يعني أيه عمرك ما هتبقي أم

نادية: يعني عمري ما هجرب تعب الحمل ولا ألم الولادة، يعني عمري ما هعمل سبوع لولادي، عمري ما هحتفل بعيد ميلادهم، عمري ما حد هيجيبلي هدية في عيد الأم ولا هوجع دماغي أدخلهم أنهي مدرسة وصوتي عمره ما هيعلى في البيت علشان ما بيذاكروش كويس ولا عمري هفرح بنجاحهم ولا بجوازهم ولا هشيل عيالهم ولا عمري هشتكي من البيت المقلوب ولا الأكل اللي متاكلش والعفش اللي اتوسخ وأطباق الجيللي اللي مرمية في كل حتة، أنا عارفة كويس يعني أيه مبقاش أم بس أنا وأنت هنبقى مع بعض هتبقى جمبي في كل لحظة من اللحظات اللي أنا مش هعيشها دي ماسك أيدي وبتعوضني عنها باللي أحلى منها لغاية ما أنا وأنت هنكبر ونعجز ونبقى ملناش غير بعض في الدنيا أنا وأنت وبس، أنا مستغنية بيك عن كل حاجة تانية يا منير.

يحتضنها منير بشدة قائلا: أنا بحبك قوي يا نادية وعمري ما هخذلك..

ولكن كذب منير، فخذلها مرة بعد مرة فها هم جالسان يتناولان الإفطار بعد أن مر بهما الزمن ورحل من رحل ولم يبق سواهما ولكن ليس بالصورة التي تخيلتها نادية فقد اختفى جمال الصورة التي رسمتها ولم يتبق سوى منير وكيف يصطنع اهتمامه بها في تمثيلية هزلية لم تكن تؤدي إلى شيء إلا إلى زيادة جراحها، وكان المشهد قاسيا جدا بالنسبة لمنير، يذكره بوعده الذي خلفه، عهده الذي نقضه، كذبه الذي نطقه وحبه الذي خانه فلم يقدر على استكمال المشاهدة فهم بالنهوض حتى لا يشاهد ما يعلمه تماما ولكن استكملت نادية وكأنها تريد أن تتذكر ما حدث وكيف سارت الأمور ببشاعة. فدون أن تنطق هي أو منير بشيء كان جميع من حولهم يتعاملون على أن نادية هي من لا تنجب ولم تعلم هي أبدا سببا لذلك فلم يقول أيا منهما من هو صاحب المشكلة فلماذا قرر الجميع أنها هي المسكينة التي حرمت من نعمة الإنجاب وأنه هو الزوج الشهم الذي تحمل زوجته في محنتها، لماذا قرر الجميع أنها هي من سلبته ذلك الحق، فهل الطرف الأضعف لابد وأن يكون هو صاحب المشكلة؟ هل الطرف الأقوى معصوم من أن يصاب بعجز أو مرض؟ هل القوة تمحي الشكوك عن صاحبها؟ لم تفهم أبدا لماذا تلبستها هي تلك التهمة، فكان يعاملها جميع من حولها على أنها تهمة قرروا أنها هي المسئولة عنها وتعاملوا معها على هذا الأساس دون أي مبرر حتى أقرب الناس إليها.

فريدة: هتروحي للدكتور تاني إمتى؟

نادية: مش هروح

فريدة التي كبرت بطنها بشدة فكانت في أواخر أشهر حملها: نعم؟

نادية: مفيش فايدة يا فريدة

فريدة: مفيش حاجة كبيرة على ربنا المهم أنتوا ماتيأسوش

نادية: مش كبيرة على ربنا بس كبيرة على الدكاترة يبقى مالوش لزوم أفضل رايحة جاية على الدكاترة، خلينا نسيبها على ربنا

فريدة: غلط يا نادية، بصي لقدام منير حتى لو مش فارق معاه دلوقتي سنتين تلاتة وهيفرق، مهما قالك أنه بيحبك وأنه هيفضل جمبك وعمره ما هيسيبك، أنا مبقولش أنه بيكدب عليكي بس مع الوقت حساباته هتختلف، أولوياته هتتغير

نادية: مش هيحصل يا فريدة، منير عمره ما هيستغنى عني

وكانت الدموع تسيل من عين نادية وهي تشاهد مشاهد حياتها، ولم تكن تعلم على ماذا تبكي، على فريدة أم على حالها أم على ما فقدته في حياتها ولكنها ظلت تشاهد، فكانوا جميعهم في المستشفى بعد أن وضعت فريدة بنتا في غاية الجمال تشبهها تمام الشبه

منير: قررتوا تسموها أيه؟

فريدة: نادية هي إللي هتسميها

ورفضت نادية الفكرة تماما فكم كانت تكره شعور الإشفاق الذي تراه في أعين من حولها ولكن أصرت فريدة ومعها حسن بشدة فذهبت نادية لتحملها وهي يملأها حنين شديد لتلك اللحظة، فتمنت لو كانت بنتها هي، لو كانت هي النائمة على السرير ويهنئها الجميع بمولودتها، كانت تتمنى أكثر من مجرد تسميتها كانت تتمنى لو لم يأخذها منها أحد فقد أحبتها بشدة منذ أن حملتها بين ذراعيها وفتحت عيناها لتبتسم لها وكأنها تقول لها ألا تحزن

نادية: سارة، لو كنت في يوم جبت بنت كنت سمتها سارة

حسن: جميل اسم سارة

فريدة: واديكي جبتي بنت وسمتيها سارة فكري في اسم تاني بقى عشان لما تجيبلها أخت

وشعرت نادية بفراغ شديد حينما أخذها منها حسن، شعرت بفراغ بيديها، فراغ في قلبها، فراغ في حياتها بأكملها، تمنت لو لم يأخذها منها أبدا وكانت تكتم رغبة شديدة في البكاء لكنها كانت تعلم بعدم مناسبة ذلك فخرجت مسرعة من الغرفة قبل أن يلاحظ أحد لتجلس في الاستقبال تسمع صرخات السيدات الحوامل وكأنها نابعة من قلبها هي رغم الابتسامة المرسومة على شفاها ثم تنظر في أعين الأمهات وهن يحملون أطفالهن وعلى وجوههم ابتسامة حقيقية أبدية لا تشبه ابتسامتها الحزينة في شيء ثم تتأمل حالها وهي وحيدة في الدنيا لا تعلم ماذا سوف يتبقى لها إذا يوما ما رحل عنها منير، ثم يأتي هو ليجلس بجوارها، يضع يده فوق يدها ويمسح دموعها بالأخرى قائلا: لو كنا في يوم خلفنا بنت مكنتش سمتها سارة، كنت هسميها نادية مع إن أنت متتكرريش يا نادية، أنت متجيش غير مرة واحدة في العمر.

كان قد غادر منير الغرفة بأكملها فكان أضعف من استكمال المشاهدة ولكن رغما عنه ظل الشريط يستكمل العرض فما كان له من مخبأ فأينما يذهب يرى وجوههم، يرى حياتهم، يرى خيانته وخسته حتى صعد إلى أعلى السطح ليلتقط أنفاسه فرأى نفسه هو وفريدة مرسومين في السماء وتعلو أصواتهم بشدة حتى اهتزت لها السموات وكأن العالم كله يشهد ما فعلوه صوت وصورة وكأن على صوتهم ليسمع الجميع وليعلم من لا يعلم كيف خذل نادية، كيف خانت فريدة أعز صديقاتها، كيف غدرت بها، وليرى الجميع الخذلان في أبهي صوره.

وقفت فريدة تطرق باب منزل نادية ومنير ليفتح لها منير الباب في لحظة من الزمن لو كان يعلم، لو كان كلاهما يعلم ماذا ستأتي به الأيام من فواجع لربما لم يفتح الباب ولربما لم تذهب فريدة من الأساس.

منير: أهلا يا فريدة إتفضلي

فريدة: هي نادية مش موجودة ولا أيه

منير: هي راحت السوق وراجعة على طول

فريدة: طيب خلاص أنا شوية وهاجي تاني

منير: معقولة يا فريدة، تعالي هي كلها ربع ساعة وهتكون رجعت

دخلت فريدة التي أتت على غفلة دون ميعاد فدائما تأتي المصائب على غفلة دون سابق إنذار يعطي فرصة للشخص أن يستعد ويتهيأ لها.

فريدة: أنا أسفة إني جيت من غير ميعاد بس أنا صحيت من النوم مخنوقة فقلت أجي أقعد مع نادية شوية

منير: لا أصل أنا إمبارح بالليل كنت بقول إني نفسي في فطير مشلتت فصحيت من النوم لقيتها سيبالي ورقة بتقولي إنها نزلت تجيبلي فطير

فريدة: بتحبك أوي نادية، ربنا يخليكوا لبعض

منير: أنت صحيتي من النوم مخنوقة ليه بقى؟

فريدة: زهقت يا منير، بقيت حاسة إني وحيدة، الولاد سافروا وحسن ليل ونهار في العيادة، البيت فضي عليا ببقى قاعدة في البيت ناقص أكلم نفسي، متشغلش بالك أنا اتعودت خلاص... أنت مش هتعزمني على حاجة ولا أية؟

ودخلوا إلى المطبخ ليعدوا شيئا يشربونه سويا في انتظار رجوع نادية الذي طال تأخيرها وهي تبحث له عن الفطير الذي قال عرضا أنه يريده، ولكن بالنسبة لنادية كل ما يتمناه منير يجب أن تحققه له على الفور. يفتح منير الدولاب ليبحث أين تضع نادية الأكواب والشاي لتتدخل فريدة قائلة: تعالى أنت أقعد، أنا عارفة نادية بتشيل الحاجات فين، وبعدين أنت هتعزمني في بيتي؟ قولي تحب تشرب أية؟

قالتها وهي تسحب كرسي لتقف عليه حتى تطول الأكواب صعدت فوق الكرسي ووقفت على أصابع قدميها وهي ترتفع بجسدها إلى أعلى مرتدية فستان طويل مليء بالورود المختلفة الألوان التي كانت وكأنها تتراقص وتتمايل وكأن هناك رياح تحركهم مع حركاتها وهي تأتي بالأكواب وظل منير يتفحصها بشدة فكان بها شيء مختلف في تلك اللحظة، شيء جذاب جدا بالنسبة له وحل الصمت عليهم دون سبب واضح وكأنها كانت تعلم بشعوره تجاهها ولسبب ما ظلت هي تبحث عن الأكواب بالرغم من أنها قد رأتهم في أول لحظة وقفت فيها على الكرسي وكأنها تعطي له فرصته كاملة وهو يمعن التدقيق فيها ولا يعلم لماذا شعر في تلك اللحظة بانجذاب شديد تجاهها فقد رأى فريدة مئات المرات من قبل، فماذا يحدث الآن؟ أتت فريدة بكوبين ووضعتهم على المائدة أسفل الدولاب التي كانت تتمايل عليه ثم بدأت في النزول فمد منير يده لها ليساعدها على النزول، وضعت يدها بيده أثناء نزولها لتقف مابين المائدة وما بينه، فالمائدة التي كانت وضعت عليها الأكواب ترتطم بظهرها ويقف هو أمامها وهو ما زال ممسكا بيدها وهي تنظر له في عينه ثم يرن صوت نادية في أرجاء المكان

نادية: منير

فيبتعدا هما الاثنان سريعا قبل أن تراهم نادية بالرغم من أنه لم يحدث بينهما شيء واضح يستدعي إخفاءه لكن شعر كل منهما بداخله أن هناك شيئا غير معتاد، هناك شيء لا يجب على نادية أن تعلمه.

كان يحاول منير بشدة ألا يتذكر تلك الأيام فكان يتمنى لو يمحيها، لو يعود بهم الزمن وتصر فريدة على الرحيل حتى تأتي نادية، يتمنى لو لم يقل إنه يريد أن يأكل فطيرا حتى لا تذهب نادية من الأساس فكان واثقا أن ما وقع بينه وبين فريدة له علاقة بموتها، فهي لم تنتحر ولم تكن مصابة بالسرطان كان لديه شعور قوي أن حسن قد علم بما وقع بينهما ولكن كيف علم ومنذ متى وهو يعلم وهل كان يمثل عليهم طوال الفترة في باريس وهل يعلم فقط بخيانة فريدة أم يعلم بتورطه معها وإن كان يعلم أن هو منير من خان العشرة فماذا سيفعل معه، وماذا فعل بفريدة أألقاها في البحر رغم علمه برعبها منه، كيف استطاع أن يقدم على تلك الخطوة، متى اكتسب كل تلك القسوة فإنها موتة بشعة، ألقاها في البحر في ظلمات الليل كيف استطاع أن يفعل ذلك مهما كان ذنبها، كان من الممكن أن يطلقها أو يفعل ما يشاء إنما يقتلها بتلك البشاعة والقسوة، وإن كان هذا هو ما فعله مع فريدة، وهي حب عمره وعشقه الأبدي فماذا سيفعل معه هو، وهل هو يعلم أنه هو؟ وإن كان يعلم فماذا ينتظر؟ أينتظر ليعذبه القلق؟ أينتظر ليعطي فرصة للخوف أن يقتله قتل بطيء؟ وماذا سيكون رد فعل نادية إذا أفصح لها حسن عما يعرفه؟ حتما سوف تتركه، حتما سوف تكرهه، شعر منير وكأنه ينهار وكأن حياته كلها على مشارف الانهيار وأنها فقط مسألة وقت ليس أكثر.

***

كان رمزي جالسا أعلى السطح مع ليلى التي لم ترضيها الطريقة التي تسير بها الأمور فبعد أن كانت تشعر بلهفة شديدة من رمزي تجاهها بدأت تشعر وكأن شيئا ما قد انطفأ بداخله فبدأت تشعر أنه أعتاد وجودها بل على الأكثر بدأت تشعر وكأنه مل وجودها وقد أغضبها ذلك الشعور بشدة ليس لأنها تعلقت برمزي ولا تريد أن تخسره بل لأنها كانت غير معتادة على الخسارة لم يحدث قط في حياتها أن رفضها أحد بالذات وأنها كانت بالفعل نجحت في اكتسابه فما الذي بدل حاله في ليلة وضحاها؟ ثم بدأت تتضح لها الصورة عندما ظهرت كاميليا ووجدت رمزي الذي لم يكن منتبها لكل ما حوله، غير مكترث لحديثها أو لوجودها قد اعتدل في جلسته، وجمع تركيزه بمجرد أن رآها وظلت عيناه تتابعها في كل خطواتها وتتابعها معه عينين ليلى التي تفحصتها بدقة، فمن هذه؟ لم تتعرف عليها ليلى فلم تكن من الأهمية بالنسبة لها حتى تتذكر أنها من كانت ترقص على المسرح في أول ليلة، ولكن منذ تلك اللحظة وهي اكتسبت أهمية بالغة بالنسبة لليلى، فمن التي استطاعت أن تغلبها في لعبتها، وهي من كانت تكره الخسارة، فهي لم تجرب شعور الخسارة قط ولن تقبل به أبدا مهما كلفها ذلك من أمر، وما زاد من غضبها أنه سرعان ما استأذن منها رمزي قبل أن ينهوا حديثهم وسارع إلى كاميليا التي اكتسبت في تلك الرحلة كما هائلا من العداوات دون أن تفعل شيئا من جانبها ودون أن تؤذي أحدا ودون أن تدرك أنها قد دخلت طرفا في لعبة لم تكن تعلم بوجودها من الأساس.

رمزي: صباح الخير

ولم تكن كاميليا تدركه جيدا ففي كل المرات التي سبق وأن جمعتهما كان يمتلكها حالة شديدة من القلق والتوتر جعلتها غير منتبهة لكل من حولها.

رمزي: أنا رمزي، اتقابلنا عند الأستاذ حسن، لو مش فاكراني هيكون أفضل، خلينا نتعرف من الأول أحسن

قالها وهو يمد يده ليدها فأمسكت هي بيده وكانت قد تذكرته في تلك اللحظة فهو ابن الرجل الذي أعلن كراهيته لهم لمجرد أنهم أعضاء الفرقة الاستعراضية، ضغط هو على يدها بشدة وكأنه بتلك المصافحة يعتذر عن كل ما بدر من والديه، أحكم قبضة يده على يدها ليشعرها أنه هو من يتشرف بمصافحتها وكأنه كان يطيب بخاطرها وربما أيضا أنه قد أطال في المصافحة لأن جزءا ليس صغيرا منه لم يرد إفلات يدها من يده حتى سحبت هي يدها منه ولم يكن من الضروري أن يعتذر بعد الآن فكان سلام يده يفوق أي اعتذار ويحمل الكثير من المعاني التي انتقلت إلى كاميليا فكان اعتذر دون أن ينطق بكلمة.

كانت ارتسمت على وجه كاميليا ابتسامة كان قد طال غيابها حتى أنها خشيت أن تظهرها خوفا من أن يراها أحد فتغيب عنها ثانية، وشعرت بالخجل منه ولكن ليس خجلا مهينا كالذي شعر به جميل وإنما خجل أنثوي، رقيق، خجل يزيد من جمالها ويؤدي إلى احمرار خديها، خجل لم تفهم هي له سبب ولكنها كانت تشعر بفرحة بالغة، كانت تشعر بارتياح شديد تجاهه رغم كل الفروقات الموجودة بينهما لكنها شعرت أنه قريب جدا منها وكأنه أستطاع أن يمحي كل تلك الفروقات، فحكى لها كم يحب مهنتها ويقدرها، كم يحب الرقص والغناء، وأنه يظن أن كل من يمتهن تلك المهن هو بالتأكيد شخص مميز، ينظر للأشياء بشكل مختلف، يرى فيه ما لم يره الآخرون، فقد خصه الله بمشاعر لم يهبها للآخرين. وحكت له كاميليا أن القبطان قد أصدر قرارا برجوع العروض مرة أخرى وأن الليلة سوف تكون أول ليلة عرض وطلبت منه أن يحضر العرض ليشاهدها ويبلغها برأيه وهو ما

أكده من جانبه أنه سوف يكون أول الحضور، وظلا يتحدثان لفترة ثم يصمتان لأخرى وكان حتى صمتهما يحمل معاني كثيرة تعجز عنه الكلمات فكانت تنظر له كاميليا كل فترة وهم واقفين جنبا إلى جنب عند السور وهي تأخذ نفسا عميقا كلما اختلست نظرة له وكأنها حرمت من التنفس طوال الفترة السابقة والآن فقط التقطت أول أنفاسها بل أنها انتابتها رغبة شديدة في البكاء لم تعرف لها سببا حتى أن تلألأت الدموع في عينيها، دموع بها مزيج من انعكاس لون البحر الأزرق يتخلله ألوان أشعة الشمس في لحظة سحرية لغروبها فيجتاح اللون الأحمر والبرتقالي اللون الأزرق داخل عينيها ليخلقوا لونا آخر ولد ومات في عينيها التي كثرت دموعها لتضفي بعدا آخر للون وتخلق منه لونا آخر لا تستطيع تحديد هويته ولكنه كان جميلا، حزينا ويكتم الكثير من الأسرار تماما كعينيها وما أن نظر رمزي لعينين كاميليا في تلك اللحظة حتى علم أنها قد تملكته إلى الأبد.

وكرهت ليلى في تلك اللحظة منظر الغروب الذي طالما عشقته فكانت الشمس وكأنها أبت الغروب في ذلك اليوم لتبعث بآخر أضوائها لتنير لهم، هم فقط وكأن تدللت خيوط الشمس من فوقهما لتحيط بهما من كل الجوانب وكأنها تتوجهم، ظلت ليلى تتابعهم بعينيها الحادتين الغاضبتين وكأنها عادت إلى طبيعتها فتحولت إلى صقر يتابع فريسته ولكن تلك المرة كان رمزي خارج اللعبة فكان ما يشغلها الآن أكبر من ذلك فكانت عيناها تقع على ضحيتها الجديدة تنظر لها بشراسة ونهم وكانت ضحيتها الجديدة كاميليا.

***

نزل الجميع إلى المطعم في موعد العشاء وكانت الليلة هي أول ليلة عرض بعد التوقف، دخل توفيق ومعه رجاء ورمزي وشاركهم العشاء

وفاء وليلى بعد إصرار من رجاء وكان يجلس بجوارهم منير ونادية وبصحبتهم حسن الذي كان رافض فكرة نزوله بشدة ولكن دفعه لذلك موقف نادية التي قالت أنها لن تنزل ولن تأكل إذا لم يشاركهم حسن والحقيقة أنه كان له دافع أقوى بكثير من الدافع الأول بل ربما هو الدافع الوحيد وهو علمه برجوع العروض فحضر ليتفحص أعضاء الفرقة ليحاول أن يتذكر أو يصل لأي شيء قد يوصله إلى من رأته، ولم يكن يعلم لماذا يريد أن يعلم من هي، فهو لن يؤذيها أو يضرها في حال أن وصل إليها، فهو ليس بقاتل بل وضعه الزمن بتلك المكانة لكن ليس القتل من طبعه فلماذا يصر على معرفتها والوصول إليها.

نظرت نادية إلى رجاء لتحيها التي بدورها قامت بإيماءة رأس لرد التحية وقام توفيق ورمزي للسلام على حسن ولكن سرعان ما عاود كل منهما مقعده والتفتت جميع الأنظار إلى المسرح وحل الصمت في المكان بمجرد أن انطفأت أضواء المطعم وتم إنارة أضواء المسرح وبدأت تعلو الموسيقى وظهرت كاميليا ووراءها سهي وياسمين وما أن رأتها ليلى حتى التفتت إلى رمزي سريعا وكانت نظراتها له يملأها التعجب وربما الشعور بالدونية والاشمئزاز وكأنها تحدثه لتقول له أتلك من أعجبتك في النهاية؟ أتلك من استبدلتني بها؟ يا لك من مغفل صاحب مذاق رخيص وتملك عقد نقص تجعلك تميل إلى الطبقات الدونية فبالطبع المشكلة ليست بي، إنما أنت المريض الذي يستحق علاجا بل وشعرت أنها اشمأزت منه في محاولة منها لإرضاء ذاتها.

أما رمزي فلم يكن يرى ليلى من الأساس بل لم يكن يرى أحدا على الإطلاق وكأن المطعم قد خلى به هو وكاميليا فقط فلا يوجد سواهم وكأنها ترقص له هو وحده وكان ينتاب كاميليا ذات الشعور فظلت تنظر له طوال العرض وكأنها تؤديه له هو فقط، تبذل أقصى ما في وسعها ليعجبه ولم يشتت تركيزها في تلك الليلة ولا رائحة الطعام

القوية المنبعثة من البوفيه ولا أطباق الأكل المملوءة أمام المسافرين ولأول مرة لا يخيفها وجود حسن أمامها فكان وجود رمزي يشعرها بالأمان والطمأنينة فلا أحد يستطيع أن يؤذيها طالما هو موجود وكانت تتلاقى أعينهم كثيرا أثناء العرض لتراه وهو يغني مع الأغنية ويحرك رأسه بتأثر شديد ولا تعلم هل هو متأثر من كلمات الأغنية أم من أدائها في الرقص أم من الموقف بأكمله وكانت ليلى تراقبه وهي تكتم ضحكاتها فكان المشهد بأكمله بالنسبة لها مشهدا هزليا فكانت تنظر له وكأنها تراه لأول مرة حتى أنها شعرت بضيق شديد أن هذا الساذج كان قد لفت انتباهها في يوم من الأيام وشعرت أن أفضل ما يمكن أن تفعله هو أن تتركه لحاله فلن يقدر أحد على أذيته أكثر من نفسه وأن تتركه لرجاء وتوفيق الذين يشاهدون كاميليا وعلى وجوههم ابتسامة عريضة كالبلهاء وهم مغيبون لا يعلمون شيئا عما تخبئه لهم تلك الفتاة التي أخذوا يصفقون لها ولكنها قررت أن تكون هي من يوقظهم من غفلتهم لتريهم مدى غباء ابنهم.

أما حسن فكان يتفحص ثلاثتهم جيدا، كاميليا، سهي وياسمين وخاصة عندما يستديرون فهو ما رآها إلا من ظهرها فكان يحاول أن يتذكر جيدا كيف كانت تبدو ومن هي أقرب واحدة لمن رآها، لكنها كانت مهمة شاقة فكانوا ثلاثتهم قريبين من بعض جدا في شكل أجسادهم، في نحافتهم فكانت ظروفهم المعيشية واحدة، ظل يتفحصهم حسن بدقة وهم يرقصون أمامه على المسرح ثم يغمض عينيه ليراها وهي تركض أمامه ليلتها ثم يفتحها مرة أخرى ويتفحصهم مجددا ثم يغمض عينيه لكن تلك المرة ليرى فريدة وهي ترقص على ذات الأغنية ليفتح عينيه سريعا ليراهم ما زالوا يرقصون فيغمضها ثانية في محاولة منه أن يتذكرها فلا يرى إلا فريدة فيحاول مرارا وتكرارا وتظل تفشل كل محاولاته حتى يستسلم لها فهو لا يرى سواها فيظل مغمض عينيه

ويسمع الأغنية في أذنه وترقص عليها فريدة ويظل مغمضا عينيه بإحكام في محاولة منه ألا يفلتها أو يفقدها. وكان منير يتابع حسن وهو جالس أمامه بشدة، كان يحاول أن يقرأ نظراته، فهل يعلم أنه هو؟ وإن كان يعلم فكيف يجلس معه على مائدة واحدة لتناول العشاء، أم أنه يعلم ولكنه يحاول أن يزيد من حيرته وقلقه في طريقة منه لزيادة عذابه؟

أما نادية فكان منظر المسرح والراقصات وسماع الموسيقى مع أداء العرض يذكرها بالعرض المدرسي الذي كانت تقوم به مع فريدة، فرأت نفسها هي وفريدة وهم أطفال يرقصون على المسرح بالزي المدرسي بدلا من كاميليا وسهي وياسمين ثم رجعت بظهرها إلى الوراء لتتذكر منزلها عندما كان يملأه الزينة المعلقة في كل مكان وتساعدها فريدة في وضع الحلوى والجاتوه على السفرة بينما تركض سارة وأخوها حولهم لتعنفهم فريدة قائلة: حسبوا يا ولاد هتكسروا الحاجة

نادية: سيبيهم يا فريدة يلعبوا براحتهم

فريدة: لا يلعبوا براحتهم إيه دول هيكسرولك البيت

نادية: يا ستي يكسروا زي ما هما عايزين أنت أصلك مش عارفة أنا بتبسط إزاي لما بيكون في أطفال عندي في البيت

تتغير نبرة فريدة: طيب وبعدين يا نادية

نادية: بلاش إنهاردة، ده إنهاردة عيد ميلادي خلينا إنهاردة مبسوطين وبكرة نبقى نتكلم في اللي أنت عايزاه

وكان حسن ومنير جالسين أمام التلفاز يشاهدان المباراة بحماس شديد فكانا يقومان ولا يجلسان، يقفزان في مكانهما بل أحيانا كانا هم

من يركلان الكرة بأنفسهم ثم يسبان اللاعب والجون والمدرب حتى يسبان اللعبة بأكملها

نادية: يلا بقى عشان نطفي الشمع

منير دون أن يرفع عينيه من على التلفاز فكل تركيزه يتجمع في قدم اللاعب: خلاص يا حبيبتي مش فاضل غير عشر دقايق

فريدة: طيب على ما يخلصوا الماتش تعالي أما أوريكي جبتلك أيه

نادية: بردو يا فريدة أنا مش قولتلك ماتجبيش حاجة

تذهب فريدة لتجلب حقيبة يدها وتفتحها لتخرج منها ألبوم صور

فريدة: بس ده غير هدية عيد ميلادك

نادية: كمان؟

فريدة: وأنا بزور ماما في إسكندرية الأسبوع اللي فات أقعدت أقلب في حاجتي القديمة اللي نقلتها معاها مش هتصدقي لقيت أيه

تقولها وهي تعطي ألبوم الصور لنادية التي فتحته لتقلب في صفحاته ثم تنظر لفريدة وهي تشعر بحنين شديد

نادية: يا نهار أبيض يا فريدة مش معقولة

فريدة وقد علت ضحكتها: شوفتي شكلنا كان عامل إزاي

نادية: فاكرة اليوم ده؟

فريدة: وده يوم يتنسي بردو، يوم ما حبسنا أبلة سهام في الحمام

ويتشبثوا بأيدي بعضهم من شدة الضحك، ثم تصل نادية لصورهم أثناء تأدية العرض

نادية: ياه ولا العرض

فريدة: كانت أحلى الأيام، عمرها ما هتتعوض

ثم يقاطعهم تهليل حسن وصراخه تعبيرا عن فرحته بعد فوز فريقه وهو يسخر من منير وفريقه المهزوم

نادية موجهه حديثها لمنير: إتغلبتوا تاني؟

حسن: تاني أية قولي عاشر، اللي أنا بستغربه أنه كل مرة ييجي ويراهني وهو عمره ما كسب الرهان

منير: طيب بقولك أيه على رهان نشوف الماتش اللي جاي مين اللي هيغلب

يقولها ثم يضحك بشدة وكأنه يسخر من حاله ثم يضحكوا جميعا

نادية: طيب يلا عشان نطفي الشمع

أشعلت نادية الشمع وأغلقت النور وأخذت سارة لتحملها بينما حملت فريدة أخوها وأخذوا جميعهم في الغناء، فكانوا يحتفلون حقا، سعداء حقا فكانوا يغنون ويتمايلون يمينا ويسارا ويصفقون بشدة وما أن انتهوا من الغناء لنادية احتفالا بذكرى ميلادها حتى أخذوا في تقطيع التورتة وجلسوا سويا في الصالون لتحكي لهم نادية عن ألبوم صورهم في المدرسة ويحكون لهم عن القصة وراء كل صورة حتى أن وصلوا لصور العرض فطلب منهم منير أن يقوموا بتأدية العرض مرة أخرى ولكن تلك المرة له هو وحسن وليس للأهالي وهو ما رفضته فريدة بشدة في البداية وتفاجأت من رد فعل نادية التي تحمست للفكرة جدا وأخذت تقنعها أن يؤدوه سويا مرة أخيرة ليرووا من منهما مازالت تتذكره وظلت فريدة متمسكة برفضها حتى نهض حسن ليجذبها من يدها وأوقفها في منتصف الصالة بجوار نادية التي كانت مستعدة لتأدية العرض وبدأ في الغناء هو ومنير ليشجعوهما على

تأديته فاستسلمت فريدة لطلبهم وبدأت في الرقص مع نادية، التي ظلت ترى نفسها هي وفريدة وهم يرقصون أمام حسن ومنير ثم تراهم حينما كانوا مازالوا أطفالا يرقصون بالزي المدرسي على مسرح مدرستهم ثم ترجع مرة أخرى وهم يرقصون في منزلها حتى انتهوا من أداء الرقصة لينهض حسن ويصفق بقوة ويصفر منير وهو ما زال جالسا في مكانه ويذهب حسن ومنير كل منهم لزوجته ويحتضنها.

منير: كل سنة وأنت طيبة يا حبيبتي

ويهمس حسن لفريدة في أذنيها وهي بين ذراعيه: بحبك

ثم يعلو التصفيق مرة أخرى ليعيد نادية مجددا إلى المسرح بعد أن أنهت كاميليا رقصتها التي لم تشاهد منها نادية شيئا.

وبمجرد أن انتهي العرض وانتهي معه العشاء أسرعت كاميليا إلى أعلى السطح وهي متأكدة أنها ستجد رمزي حتى أنها لم تنتظر لسماع رأي جميل في أدائها كما كانت تفعل دائما ولم تنتظر حتى أن تغير ملابسها وكأنها تخشى أن تتأخر عليه فيمل ويرحل، فكانت تركض سريعا، تقفز على السلالم لتلحق به ووجدته بالفعل في انتظارها ولم يراودها الشك للحظة أنها لن تجده فكانت متأكدة أنه سوف يكون في انتظارها، فشعور قد وصل إليهم هم الاثنين أنهم لن يستطيعا أن يناما الليل قبل أن يريا بعضهما وكأن كان بينهما اتفاق على المكان والزمان ولكن الحقيقة أنهما لم يجمع بينهما اتفاق بل قاد كل منهما شعور قوي بأن الآخر حتما في انتظاره في ذلك المكان الذي جمع بينهما أول مرة وفي ذلك الزمان الذي تبدلت فيه أحوالهما إلى الأبد.

صعدت كاميليا لتراه وهو يقف عند السور تحيط به النجوم اللامعة من كل جانب وهو يقف وسطهم وكأنها تهديه إليها، شعرت

وكأنه هدية السماء لها ثم التفت إليها ليراها أيضا والنجوم تتراقص حولها، نجمة تضيء ونجمة تطفئ لإبراز أكبر نجمة فيهم، كاميليا.

كانت تسير له وكأنها معصوبة العينين، مسلوبة الإرادة فكانت تقترب منه دون أن تفكر فلم تكن تريد أن تفكر فلو كانت شغلت بالها ولو للحظة بمدى إمكانية أن يستمر ذلك الشعور بينهما لأيقنت مدى صعوبة تلك الفرضية، بل استحالتها.

كاميليا: أيه رأيك في العرض؟

رمزي: الفكرة مش في العرض ولا في جميل ولا في الأغاني، الفكرة فيكي أنت يا كاميليا، العرض حلو عشان أنتي اللي بتنفذيه، أنتي اللي بتعلي بيه، من غيرك ولا هيبقى في عرض ولا مدرب للفرقة لأنه أصلا مش هيكون في فرقة

كاميليا: مش للدرجة دي أنا بردو على قدي

وحكي لها رمزي كم يحب الغناء ولكن كان ذلك ما رفضه والده تماما منذ صغره حتى أنه أصر على إخراجه من كورال المدرسة حتى ينهي هذا الموضوع من بدايته.

كاميليا: طيب ما تغني دلوقتي

رمزي: لا دلوقتي أيه بقى خلاص مباقاش ينفع

كاميليا: لا مقصدش، أنا قصدي غني دلوقتي هنا وأحنا واقفين

ورفض رمزي طلب كاميليا بشدة رغم أن شيئا ما بداخله كان يدفعه وبقوة أن يلبي طلبها، كان حقا يود أن يغني، بالذات في تلك اللحظة، كان يود أن يغني لها، أمامها وكانت تظن هي أن ما زال أمامها وقتا طويلا حتى تقنعه بأن يغني حتى فوجئت به قد بدأ في الغناء بالفعل فنظرت له بدهشة شديدة فمتى استجاب لطلبها وقرر أن يغني

وهو من كان للتو يرفض بشدة ولكن أدهشها أكثر اختياره للأغنية، فظلت تتساءل هل يقصدها هي، هل ما تشعر به حقيقي، هل من الممكن أن يكون بالفعل خلق ذلك الشعور بينهم، هل كان يتوقع رد فعل من حوله، هل كان يعدها بشيء؟

أخذ هو يغني باندماج شديد وكأن هذا هو ما يفعله طوال الوقت حتى أخذ في تحريك يديه مع الكلمات ليعزز المعنى وكان يرقص ويتمايل بجسده كله وكأنه يغني على مسرح لا يوجد به سواها

"لاموني اللي غاروا مني وقالوا لي ايش عجبك فيها

جاوبت اللي جهلوا فني خدوا عيني شوفوا بيها"

ثم مد يده لها وهو يغني فأمسكت هي بيده لتشعر وكأنها ملكت الكون كله بين يديها، ثم جذبها بالقرب منه وهو محتفظ بيده في يدها وبدأوا أن يرقصوا سويا

"هالطفلة اللي غرتوا منها وحبيتوني باش ننساها

منقدرش نبعد عنها وأنا وكل عمري فداها

عاشق ومغروم في فنها حياتي وعمري كله لها"

ثم مالت هي برأسها على كتفه فكانت قد علمت أنه يغني لها هي، يقصدها هي، ثم أنزلت رأسها من على كتفه لتسكنها على صدره ثم أغمضت عيناها وأخرجت تنهيدة طويلة معبأة بحمل السنين الذي طالما أثقلها وظلت مغمضة لعينيها متشبثة به تتمنى ألا تنتهي الأغنية وألا تنتهي تلك اللحظة التي جمعت بينهما في غفلة من الزمن، كانت تشعر وكأنه انتقل بها إلى عالم آخر ليس به شرور ولا أحقاد ولا ظلم ولا قتل ولا فقر لم تريد أن تفتح عينيها مرة أخرى، لم تريد أن ترجع إلى أرض الواقع مرة أخرى، فهي قد سئمت واقعها المرير وحياتها القاسية

وتمنت لو أن تكمل حياتها بين ذراعيه وهي مائلة برأسها على صدره لتشعر بأنفاسه تترك أثرا على رقبتها تتمنى هي ألا يزول أبدا، ثم شعرت بأصابعه بين خصلات شعرها واقترب فمه أكثر ناحية أذنها وكأنه يطمئنها ويؤكد لها أن الأغنية لم تخلق من الأساس إلا لها

"أنا في عينيها آدم وهي في عينيا حوا

قالوا لي عالعشق خادم قولتلهم محروم من جوا

سمرا وغنى عليها العالم والعالم كله شاريها"

ظلا يرقصان سويا حتى بعد أن انتهي من غنائه لها، كانا رافضين إفلات بعضهما واتخذا من رقصتهما سويا حجة لئلا يتركا بعضا، فظلا يرقصان في صمت تام لا يتخلله إلا صوت البحر، ثم رفعت كاميليا رأسها لتنظر له وعيناها في عينيه وكانت عيناها شاكرتين، كانت تشكره أنه رآها من الأساس، أنه شعر بما بداخلها من ألم حينما لم يشعر أحد فقد رأى ما بداخلها دون أن تحكي له، وكانت عيناها تترجاه وتتوسلان إليه وهم مليئتان بالخوف ألا يتركها وألا يخذلها واستطاع هو أن يقرأ ما في عينيها ولم يجد وسيلة لطمأنتها سوى أن يضع شفاه على جبينها ويقبلها، فأغمضت عينيها مرة أخرى وكأنه نجح في الوسيلة التي اختارها فشعرت بأمان بين ذراعيه لم تشعر به قط بل لم تكن تعلم بوجوده، فاستطاعت لأول مرة أن تغمض عينيها دون أن تشعر بخوف وكأنه داوى جراحها من دون أن تفصح عنهم، ولكن كانت في ذات الوقت يملأها شعور شديد بالخوف ولكن خوف مختلف عن ذلك الذي اعتدته دوما، خوف هي لم تذقه من قبل فكان خوف من فكرة فقدانه حتى أن وصل بها الأمر أنها ظنت أنه من الأفضل لو أن ترحل الآن ولا يتحدثان مجددا ولا تراه ثانية لتبقى تلك هي الذكرى الوحيدة التي جمعت بينهما دون أن يجمع بينهما أي ألم أو جراح ولكنها

لم تكن تقوى على الرحيل، فكلما فكرت في الرحيل كلما وجدت نفسها تتشبث به أكثر رافضة أي محاولة منها في أن ترحل حتى أنها ظلت تحاول إسكات رأسها فقط لتستمع بتلك اللحظات معه حتى وأن كان هناك شيء ما بداخلها لم يكف على أن يذكرها بأن وجوده معها لن يدوم طويلا. وظلا جالسين سويا يغنيان ويرقصان ويتحدثان حتى شرقت شمس النهار وكان التعب الذي ظل كلاهما يخبئونه ويحاربونه قد غلبهم فاتفقا أن يخلدا إلى النوم ليريا بعضا مجددا أثناء العرض.

***

كان حسن في ذات الوقت جالسا في غرفته يدخن سيجارة تلو الأخرى، عيناه تغمض وحدها وهو جالس فقد اشتاق للنوم، ولكن سرعان ما يفتحها قبل أن تخدعه وتتعمق في النوم، فلم يكن يعلم هل هو من لفظ النوم أم أن النوم هو من لفظه، فكان يبذل مجهودا هائلا حتى يستطيع أن ينام وبمجرد أن ينام لا يرى سوى وجه فريدة، تارة وهي تنظر له نظرة قوية يملأها التحدي وكأنها تقول له نعم خنتك، ولكن من قال إن خطأك يقل شيئا عن خطأي، كلانا مثل بعض، كلانا أسوا من بعض فإذا كنت تظن إني امرأة بشعة فأنت بذات بشاعتي إن لم تكن أبشع، وإن كان هذا هو عقابي عما فعلت فماذا تظن قد يكون عقابك أنت؟ سوف تموت بأبشع الصور، وسوف ترى وجهي حينها وتشعر بعذابي وسوف أكون هناك بجوارك لأرى عذابك فربما يخفف ذلك من عذابي. وتارة أخرى يرى وجهها وهي تبتسم له ابتسامة تحمل الكثير من التشفي وكأنها تقول له أتظن أنك هكذا تتألم، إنك لم تعرف معنى الألم بعد، ستذوق ألما لا يتحمله أشد الرجال قوة، ستذوق ألما أشد من الذي تحملته أنا أثناء غرقي في ظلام يكفي وحده أن يقتلك من الرعب وأنت لا تعلم ماذا يخفي لك وراءه، ظلام غير الذي نعرفه في منازلنا حين نطفئ الأنوار، إنما هو كظلام

القبور، فقد كان قبرا بالفعل بل أشد قسوة، فرغم إني لم أعد أستطيع أن أتنفس لكن كان قلبي ما زال ينبض رعبا وروحي ما زالت متعلقة بي وهي تصرخ لتغادر جسدي الذي ألقى به أقرب الناس إليه غدرا في الظلمات، ثم أشعر بجسدي يرتطم بكائنات أنا لا أراها من الأساس ولكنها ضخمة تحيطني من كل الاتجاهات وتقترب مني بشدة حتى كنت أشك أني فقدت جزءا من جسدي لتلك الكائنات ولكني لم أكن أكيدة فكنت بدأت أن أفقد الشعور بجسدي كله، أنا من كنت أخاف الحشرات الصغيرة عندما تدخل بيتنا، لا أعلم كم طال أو قصر وعيي وإدراكي أسفل الماء لكن الأكيد أن الوقت مر علي وكأني فقدت البصر فأنا لا أرى إلا ظلمات، لا اقدر على التحقق إن كنت ما زلت أحتفظ بكامل جسدي أم لا، وربما أكون قد فقدت البصر بالفعل، فقد شعرت أيضا إني فقدت السمع من شدة ضغط المياه فكنت أفقد حواسي واحدة تلو الأخرى ولا يصل الأكسجين إلى رأسي فلا يقوى مخي على إعطاء أي إشارات لجسدي فكأني أصبت بالشلل في آخر لحظاتي لتحركني الكائنات المحيطة بي كما يروق لها، وتمتلئ رئتاي بالمياه حتى شعرت وكأنهم على وشك الانفجار في وقت تمنيت فيه لأول مرة في حياتي أن تغادر روحي من جسدي سريعا لتخلصني وترحمني من ذلك العذاب، فكانت حبيسة داخل جسدي الذي لم يقو على التحمل ثم رأيت وجهك أنت، وكان وجهك آخر ما رأته عيني في حياتها، وجهك الذي ارتسم بوضوح وسط كل ذلك الظلام ولكن كان وجهك في أول مرة تقابلنا، في أول مرة رأتك عيني، كم أحببتك حينها كم أحببت الحياة كلها وكم تبدل شعوري الآن فلو كنت أعلم حينها إني سأرى ذات وجهك مجددا في تلك اللحظة لرحلت حينها، لركضت منك وبعدت عنك قدر ما استطعت.

كان يتألم حسن بشدة حتى أنه كان يخاف النوم فكلما نام كلما ظهرت هي له وكان يود أن يصرخ بها من أين أتيتِ بكل هذا الجبروت؟ أنتِ من خنتِ، أنتِ من غدرت، أنسيتِ من أنا؟ أنا الذي ما خذلتك يوما، أنا الذي كنت أرى الحياة كلها بعينيكِ فما أغمضت عيناكِ حتى توقفت بي الحياة، أنا الذي وهبت لكِ عمري، وضعته بين يديكِ وخونتِ الأمانة، قتلتيني أنت يا فريدة قبل أن أقتلك أنا، فأنا بالفعل قد مت بأبشع الصور في اللحظة التي قررتِ أن تخونيني بها، ووجهي الذي رأيته في ظلمات البحار هو ذات وجهي الذي احتفظت به طوال سنوات عمرنا التي جمعتنا بعكس وجهك الذي تبدل وتبدل ولو عاد بنا الزمن لأول مرة تقابلنا فأنا من كان علي بالهروب منك والبعد عنك لو كنت فقط أعلم ما تطوينه في صدرك لي.

ولم ينم منير أيضا في تلك الليلة، فظل مستيقظا يتغذى عليه القلق فظل يسترجع ما حدث بينه وبين فريدة حتى يعلم متى أخطأوا ومتى اكتشف حسن ما يدور بينهما، فذهب إلى الإسكندرية حيث كانوا استأجروا شقة هم الأربعة ليقضوا أجازة شم النسيم وكان أكيد أن حتى تلك اللحظة لم يكن يعلم حسن بشيء، فلم يكن هناك شيء من الأساس في ذلك الوقت ليعلمه حسن وكان كعادته مغرما بها وكأنهم ما زالا في البدايات، فكان دائما يتساءل الجميع كيف لا ينطفئ حب حسن لفريدة على مدار كل تلك السنوات، فالوقت ليس من الضرورة أن يقتل الحب ولكن ربما يهدأ مع مرور الزمن، ربما يعتاده الشخص فلا يشعر بذات اللهيب الذي كان يشتعل في البداية أو ربما يضمن وجوده معه فلا يعطي له ذات الاهتمام، ولكن كان حب حسن مختلفا فكان حبه لها يكبر ولا يصغر أبدا، يزداد في كل يوم عن اليوم الذي سبقه، فكان ينظر لفريدة وكأنها غير نساء الأرض، فأي نساء نتحدث عنهم ونحن نتحدث عن فريدة، فمن تلك التي تستطيع أن تنافسها في

جمالها وهي من كان جمالها يفوق جمال الحب ذاته قبل أن يفوق جمال الأوجه، وأناقتها التي تطغى على أناقة الأميرات وروحها التي ترفرف كروح ملاك، كان حقا يراها ملاكا كان حقا لا يرى.

ثم تذكر حينما ذهبوا جميعا إلى البحر وكيف كان يمسك حسن بيد فريدة طوال الوقت مع إنها لا تعطي له ذات الأهمية فكانت كثيرة الحركة بيدها وهي تتحدث فكانت طوال الوقت تسحب يدها من يده وهي تحدثهم لينتظر حسن حتى تنتهي من إشارتها ويعيدها مجددا بين يديه حتى أن منير كان يكتم ضحكاته على حسن فكان يشعر أن حبه لها جنوني ولكنه في تلك المرة انتابه شعور مغاير فكان يتساءل ما الذي تملكه فريدة يجعل حسن متعلقا بها لتلك الدرجة المرضية، فلا بد أن بها شيئا مختلفا فبالتأكيد هي تقدم له ما يجعله مهووسا بها إلى هذا الحد، وظل طوال جلستهم لا يشغله إلا ذلك الموضوع، لا يشغله إلا فريدة، ولكن تعب نادية كان هو ما أضطره أن يوقف تفكيره عن فريدة بشكل مؤقت، فبدأت نادية تشعر برعشة في جسدها ودوار شديد مما اضطرهم إلى الرجوع إلى المنزل حيث استلقت على السرير وجميعهم جالسين بجوارها وهي ترتجف بشدة.

حسن: لا الحرارة كده عالية جدا، لازم تاخدي مخفض

منير: طيب قولي اسمه أيه وأنا هنزل أجيهولها

حسن: لا خليك أنت جمب مراتك وأنا هنزل أجيبه، مش هتأخر

خرج حسن من الغرفة لتخرج وراءه فريدة: هي كويسة يا حسن؟

حسن: كويسة يا حبيبتي متقلقيش، هي بس خدت ضربة شمس

يقبلها حسن ثم يذهب وتغلق هي الباب وراءه لترجع إلى نادية في الغرفة مرة أخرى لتجدها قد استغرقت في النوم فيشاور لها منير لئلا

تصدر صوتا حتى لا توقظها وطلب منها أن يتركا الغرفة ليتركوها تستريح.

جلسا سويا في الصالون في انتظار عودة حسن بالدواء، وأخذت فريدة تحكي له كم أنها تشفق على نادية فحتى أبسط الأشياء تحرم من الاستمتاع بها فمجرد السفر لمدة يومين في الإسكندرية لا يمرون عليها إلا وهي نائمة في السرير يرتجف جسدها بشدة حتى تكاد تشعر أن السرير بأكمله يرتجف معها، وبالطبع لا يساوي ذلك شيئا إذا ذكرنا حرمانها من أن تكون أما وأخذت تشرح له كم كانت تتمنى ذلك منذ أن كانا أطفالا في المدرسة وكم كانت ستكون أما رائعة يفتخر بها أبناؤها لكنها حرمت من كل ذلك، حرمت من أجمل ما في الحياة وهي أنقى من على الأرض، فلم حرمت من كل تلك النعم وهي التي لم ترتكب ذنبا بحياتها، وكان رد منير مقتضب يتلخص في أنها حكمة ربنا التي لا يجوز الاعتراض عليها فربما لو كانا رزقا بالأبناء لكان عذابهم الآن أكبر، فمن يعلم ما تخبئه الأقدار.

فريدة: أوعى يا منير في يوم تتخلى عن نادية عشان موضوع الخلفة ده

وهو ما استنكره منير بشدة، فلو كان الغدر من طبعه لتركها من أول يوم علما به باستحالة الحمل ولكن أخذ يوصف لها كم يحبها وأن حبه لها يعوضه عن أي شيء آخر، فلماذا يبحث عن أطفال يكونون استنساخا منها في حين أن لديه نادية ذاتها.

وطالما أعجبت فريدة بحب منير لنادية، عشقت كيف يصيغ حبه لها، فتضحيته التي قدمها لها حقيقية وملموسة يراها الجميع الأعمى قبل المبصر حتى أن وصل بها الأمر أنها كانت أحيانا تتمنى لو أن تكون مكانها حتى لو سيكلفها ذلك حرمانها من الأمومة، فحبه لها ليس فقط

كلام يعاد ليلا نهارا كما يفعل حسن دون برهان حقيقي ودون اختبار قاس لحبهم كاختبار حب منير لنادية.

فأخذت تحكي له أنها تعلم كم يحبها حسن ولكنها تساءلت لو كانوا هم من وضعوا في ذلك الاختبار ماذا كان سيفعل فهل كان سيتخلى عنها أم كان سيتخذ قرارا بحرمان نفسه من كل ما يتمناه أي إنسان فقط ليبقى بجوارها؟ قالت له إنها ليست أكيدة، لا تستطيع أن تجزم ولا هو نفسه يستطيع فبالطبع لو طرحت عليه ذلك السؤال لن يقول سوى أنه لن يتخلى عنها أبدا، أنه لا يحلم بسواها، وإنها في عينيه كل ما يتمناه، ثم أردفت بأنها لا تقول إنه يكذب ولكن هو نفسه لا يستطيع أن يحدد ماذا سيكون رد فعله، لا يستطيع أن يعلم ماذا كان سيفعل إن كان هو مكان منير.
فريدة: فكرة أنكوا مالكوش في الدنيا غير بعض، موركوش غير بعض، مش شايلين هم حاجة، مفيش حاجة تشغلك عنها ولا حاجة تشغلها عنك، أنتوا فاهمين أنكوا في محنة بس جوة كل محنة في حاجة جميلة، الحاجة الجميلة دي فيكوا أنتوا، حبكوا لبعض هو أجمل ما في محنتكوا

منير: أنا حبيت حياتي بعنيكي يا فريدة، يا ريتها كانت زي ما أنت شايفاها، بس الجمال مش في المحنة، الجمال في الشخص اللي يقدر يشوف الجمال اللي متداري في المحنة، يشوف جمالها قبل ما يشوف قسوتها، أنت بتعرفي تخلي كل حاجة جميلة لدرجة أنه لو بأيدي أختار هختار نفس المحنة بس لو بعينيكي، لو معاكي عشان من غيرك جمالها هيختفي ومش هيتبقى غير قسوتها

كان يقولها وهو يقترب منها أكثر وتقترب يده من يديها ثم رن جرس الباب الذي تعاملا وكأنهم لم يسمعوه فظلا ناظرين في أعين بعض

رافضين أن يقاطعهما شيء فكان على تلك اللحظة أن تستمر حتى انتهت فريدة أنه بالتأكيد حسن من يرن الجرس فقامت مسرعة لتفتح له وكان قد جاء بالدواء ليأخذه منه منير ويدخل به لنادية وهو يختلس نظرات سريعة إلى فريدة التي ظلت صامتة، شاردة بعينيها لا تجيب حتى على حسن حتى أنها ادعت التعب لتذهب إلى غرفتها وتنام لكن لم تعرف عيناها النوم في تلك الليلة فأخذت تفكر فيما يحدث بينها وبين منير، أهناك ما يحدث بالفعل أم أنها هي فقط من تتخيل ذلك، لا.. أنا لا أتخيل، أنا أكيدة، فكانت على يقين أن هناك شعورا مشتركا بينهم، شعور دخيل عليهم لا يمكن أن يفصحا عنه، فأخذت تسأل نفسها إن كانت تستطيع أن تحكي لنادية عما حدث كما تحكي لها كل شيء عن حياتها حتى أتفه الأشياء، بالطبع لا تستطيع، إذا حتما هناك ما يدور بينهما، هناك شعور واحد يجمع بينهما تخاف أن تصارح به أحد بل تخاف أن تصارح به نفسها، كانت ليلة طويلة بالنسبة لفريدة فكانت تعلم أن منير ينظر لها الآن نظرة مختلفة، كانت تفكر فيما سوف تحمله لهم الليالي القادمة، كانت تفكر في نادية وفي حسن ولم تغمض لها عين حتى سمعت صوت نادية ومنير بالخارج فوجدت نفسها تسارع بالخروج إليهم.

فريدة: صباح الخير يا حبيبتي، عاملة إيه إنهاردة؟

نادية: أحسن كتير، أنا تعبتكوا معايا، ده منير منامش من امبارح كل ما أتقلب ألاقيه صاحي

تنظر فريدة له وهي تعلم أنه ما سهر الليل خوفا على نادية كما تظن بل أن ما سهره وحرمه من النوم هو ذاته ما سهرها وحرمها هي أيضا.

نادية: ده غير إن السفرية باظت بسببي

فريدة: وعشان كده بقى لازم تعوضيهلنا

وكان قد لحق بهم حسن لتوجه فريدة حديثها له: أنا كنت بقول لنادية يا حسن لو يطلعوا معانا باريس عند الولاد

حسن: ياريت والله

نادية: أيه رأيك يا منير

منير: أنا معنديش مانع، شوفوا هتسفرولهم امتى وأنا هقدم على أجازة في الشغل

وكانت انتهت أجازتهم وحان وقت عودتهم للقاهرة، فكانوا يجهزون حقائبهم استعدادا للرحيل وأخذ حسن حقائبه هو وفريدة ليضعها في السيارة ونزلت نادية وراءه لتضع حقائبها أيضا لتخرج فريدة من حجرتها في طريقها لأن تلحق بهم وتقف لوهلة أمام غرفة نادية ومنير الذي كان يغلق حقيبته ليخرج لها سريعا بمجرد أن رآها فتدير وجهها وتأخذ خطوة في طريقها إلى الباب ليمسك بذراعها سريعا: استني يا فريدة

فريدة: ما ينفعش يا منير.

يركبون معا السيارة ليعودوا إلى القاهرة، يجلس منير في المقعد الأمامي بجوار حسن الذي كان يقود السيارة وتجلس فريدة ونادية جنبا إلى جنب بالخلف لتقترب منها نادية لتحني برأسها على كتف فريدة وينظر لهم منير في المرآة الأمامية لتسرع فريدة بالنظر في عكس اتجاهه وتبتسم نادية ظنا منها أنه كان ينظر لها هي.

***

كانت رجاء قد استيقظت في الصباح لتكمل تنفيذ خطتها المتعلقة برمزي وليلى فأيقظته بعد أن نام ساعتين فقط بحجة أنها تفتقده

بشدة وتود أن تجلس معه لبعض الوقت، فصعدت به إلى أعلى السطح بالطبع ليجدوا وفاء وليلي الذين شاركوها الخطة ولكن تلك المرة لم يكن رمزي هو هدف ليلى بل كانت كاميليا، كيف تؤذيها، كيف تكشف لرجاء غباء ابنها الذي لم يزعزعه سنوات دراسته الطويلة في فرنسا، كانت خطتها أن تكشف لها حقيقة ما بداخله، بل كانت ترى أن رجاء هي ذاتها لا تقل عنه غباء، بل أنه بالتأكيد قد ورث الغباء عنها فكيف تنتظر لتأتي ليلى من هي غريبة عنهم لتكشف لها حقيقة ما يبطنه ابنها.

جلسوا جميعا أعلى السطح وأخذوا يتحدثوا كثيرا في مواضيع مختلفة لم يكن يسمعها رمزي من الأساس فهو لم ينم منذ البارحة سوى ساعتين فقط، فكان يشعر أن كل ما يدور حوله ليس أكثر من حلم سخيف يعكر صفو نومته، حتى صعدت كاميليا وبرفقتها سهي وياسمين حتى شعر أنه انتقل إلى حلم آخر ولكن تلك المرة كان حلما يمتع عينيه، يزيد من دفء نومه فلا يريد أن يستيقظ منه أبدا ولكن أفاقه منه عنوه كلمات والدته التي محت أي دفء كان يشعر به

رجاء: مش دول البنات بتوع الفرقة؟

ليرد رمزي مسرعا وكأن أي كلام عن كاميليا يخصه هو فلابد وأن يتدخل به: أه هما

رجاء: وإزاي سمحنلهم يطلعوا يقعدوا معانا؟ إحنا مش حاجزين فرست كلاس عشان في الآخر يجمعنا بالناس دي مكان واحد

واستنكر رمزي بشدة حديث والدته فما قد يضيرها من وجودهم معها في نفس المكان، كيف يؤثر ذلك عليها سلبا ولماذا هي مهتمة بوجودهم من الأساس ولكن شاركتها في الرأي وفاء قائلة أن مجرد وجودهم يطبع المكان بطابع مختلف، يطبع المكان بطابعهم هم

وفاء: أنت عمرك ما تقدر تعرف أيه اللي بيدور في دماغهم، شايفينا إزاي وبيقولوا علينا أيه

رمزي: أه بس عارف إحنا شايفنهم إزاي وبنقول عليهم إيه

ثم استأذن منهم رمزي وتركهم بعد أن أعلن موقفا واضحا وصريحا له بأنه غير راض عما يقولون، بأنه يختلف معهم كلية وهو ما لم يعجب رجاء فقد اتخذ موقفا حادا لا داع له ولم تجد ليلى فرصة أنسب من تلك لتلقي بالحقيقة في وجه رجاء لتفسر لها موقف ابنها الذي تعجبت له بشدة

ليلى: هو رمزي زعل ولا أية؟ جايز عشان البنت اللي يعرفها

رجاء وقد بدأت تتبدل ملامحها: بنت مين؟

لتعطيها ليلى إجابة مغلفة بالخبث والحقد والكره قائلة أنها تلك الفتاة التي تتخذ من الرقص وسيلة لأكل العيش وسد جوعها، وقد انقلبت عينان رجاء وهي تسمع كلمات ليلى التي ألمتها بشدة فكانت تشعر باستهزاء ليلى منهم وكانت في تلك اللحظة أدركت أن رمزي قد وقع في حب إحداهن، وأدركت أن الأيام القادمة سوف تكون عصيبة لن ترحم أحدا.

***

وما أن عاودت كاميليا ومعها سهي وياسمين لاستكمال التمارين بعد الراحة التي كان أعطاها لهم جميل حتى فوجئوا بجلوس حسن معه، رأته كاميليا من ظهره كما رأته أول مرة وهو يلقي بفريدة فكانت تتذكر هيئته من ظهره جيدا فلم تكن تلك الصورة تفارق خيالها ولكن ولأول مرة لم تخاف أو تتوتر كاميليا كعادتها عند رؤية حسن فكانت تشعر أنها وجدت من يحميها من أي شرور أو أذى فذهبت إلى عندهم

دون أي تردد بخطوات ثابتة حتى أن وصل شعورها إلى جميل الذي تعجب بشدة فما الذي استبدل خوفها الذي كان يسكن عيناها ويعشش بها ليحل محله كل تلك القوة والجرأة وكأنها لم تذق طعم الخوف يوما.

جميل: الأستاذ حسن كان جاي يهنيكوا على أدائكوا في العرض ليلة أمبارح

حسن: الحقيقة ادائكوا كان رائع، أنتوا التلاتة

شعرت سهي وياسمين بسعادة غامرة فأخيرا رآهم أحد، أخيرا شعر أحد بوجودهم، أخيرا ظهروا بالرغم من نور كاميليا الذي وكأنه يشع من جسدها بأكمله أثناء رقصها على المسرح ليعمي الجميع عن رؤية من خلفها، ظلوا يشكرونه بشدة على تلك الإشادة التي كانوا ينتظرون لسنوات لسماعها وأصروا أن يحضروا له شيئا ليشربه وما كان لكل محاولاته بالرفض من فائدة.

سهي: حضرتك لازم هتشرب معانا حاجة، أنا بقى عليا فنجان قهوة الكل بيحلف بيه حتى أسأل جميل، دقيقتين بالظبط ويكون قدامك

ركضت سهي وخلفها ياسمين إلى ما كانوا يسمونه مطبخا لإعداد فنجان قهوة لحسن، ولا يعلم إلا الله كيف دخل كلاهما إلى المطبخ فالتصقا ببعض ليدخلا به وكأنهما التحما ببعض ليصبحا شخصا واحدا وكانت تسارع كل منهما في وضع لمستها الخاصة بفنجان القهوة، لتعترض كل منهن على ما تقوم به الأخرى.

سهي: يا شيخة أوعي كده أنت إيش فاهمك أنت في عمايل القهوة؟ إتفرجي وإتعلمي، وبعدين من امتى أصلا وأنت بتجري عشان تعملي قهوة لحد؟

ياسمين: وإيه المشكلة؟ الراجل في أزمة ومراته لسة ميتة ومع ذلك جاي لغاية عندنا عشان يجاملنا يبقى مش كتير عليه نعزمه على فنجان قهوة

سهي: نعزمه على فنجان قهوة بردو

ياسمين: تقصدى أيه؟

وكان ما يدور في رأس سهي هو تماما ما يدور في رأس ياسمين، فبعد أن فرحوا أن أخيرا قد لاحظهم أحد خطر على بالهم هاجس آخر وهو أن نور كاميليا على المسرح لم ينطفئ لحظة بل أنها الليلة الماضية كانت تشع نورا أكثر من أي وقت سبق، فذلك الرجل يكذب ليس هذا ما أتى به ولكن لم يخيل لهم تفكيرهم أكثر من أنه ربما يكون حزينا يشعر بالوحدة بعد وفاة زوجته ويحاول أن يشغل وقته، يحاول أن يعوضها، يحاول أن يجد من تأنسه في الليالي المتبقية له، ولم تمتلك أي منهما أي اعتراض أن تلعب هذا الدور في حياته بل كن فقط يتمنون أن يقع عليهم الاختيار.

بينما كانت تقف أمامه كاميليا وهي تعلم حقيقة ما أتى به، تعلم ما كان يبحث عنه بالفعل حتى أنها قد تملكها شعور لوهلة أن تلاعبه، فلم لا، فهي لم تعد خائفة منه بعد الآن، فهي لديها رمزي الذي لن يسمح لشيء على وجه الأرض أن يؤذيها، إنما هو قد فقد كل ما كان يملكه فهو من عليه أن يخاف ولكن كم كانت مخطئة كاميليا فلا عليك أن تخاف سوى من شخص فقد أعز ما كان يملكه يوما، وقفت أمامه وهي تنظر له في عينيه بقوة وتعامله بندية لم تعامل بها أحد قط في حياتها.

كاميليا: ومفيش أخبار عن مدام فريدة؟ لسه موصلوش للي عمل كدة؟

قالتها وهي تبتسم ابتسامة خبيثة غريبة عليها ولا تليق بها وكان جميل ينظر لها وكأنه يراها لأول مرة كان يود أن يسألها ماذا حل بكِ، كيف يمكن لشخص أن يتبدل هكذا في ليلة وضحاها، لم يكن يصدق ما يسمعه فماذا أصابها؟ هل فقدت عقلها؟ هل جنت من كل ما يحدث حولها؟

حسن: للأسف لسه، أنت عارفة يا كاميليا لو كنتي عرفتي فريدة، لو كنتي قابلتيها قبل الحادثة كنتي حبتيها جدا وهي كمان كانت هتحبك، كنتي هتلاقيها كل يوم معاكوا هنا في التمارين واقفة بترقص معاكوا.

كان يتحدث حسن مع كاميليا وكأن يجمع بينهما ألفة شديدة، عشرة عمر لم تفهم هي سبب لها.

حسن: فريدة غير أي ست ممكن تعرفيها، فريدة هي الفجر لما يشقشق والشمس تشرق تنور الكون، فريدة هي الدفا في عز البرد، هي الوطن، هي الأرض، هي البيت والعيلة والأهل، فريدة هي الجنة لما تدخليها بعد اشتياق

قالها وقد تجمعت الدموع في عينيه لينسحب سريعا من المسرح بعد أن شعر بالخجل من بكائه أمامهم ولكن كان ما زال يكمل حديثه أثناء خروجه ورغم أنه كان حديث سري يدور في رأسه هو فقط لا يسمعه سواه لكنه كان يشعر أن صداه من القوة ليصل إلى كل من على السفينة.

حسن: فريدة هي البحر لما يقرر يغدر بيك، الدنيا لما تعلن الحرب عليك، هي النار اللي بتحرقك على ذنب أنت مرتكبتهوش، فريدة هي الذنب اللي أنت مرتكبتهوش، فريدة هتتمنى لو مكنتش عرفتها وفي نفس الوقت هي أحلى حاجة عرفتها.

كانت تنظر له كاميليا أثناء خروجه بتعجب شديد وكأنها تسمع كلماته فكانت تشعر بمصداقية كلامه، شعوره، وألمه فهو لا يكذب ولا يتصنع الحزن حتى أنها ندمت أنها قررت أن تلاعبه من البداية ثم شعرت مجددا بسذاجتها فكيف يكون لحديثه أو لشعوره أو لآلامه أي مصداقية وهو من قتلها بيده ولكن شعور قوي كان يتملكها بأنه لا يكذب. أما جميل فكان في حيرة شديدة من أمره، فكيف تحولت كاميليا هكذا؟ من أين اكتسبت تلك القوة والشجاعة؟ ولأول مرة يشعر هو شخصيا بخوف من حسن فكيف برع في التمثيل إلى هذا الحد؟ كيف أتقن أداء الدور بتلك الحرفية حتى أنه لوهلة شعر بتعاطف شديد تجاهه، فشعر جميل أنه وسط عالم مرعب ومخيف وما زاد من خوفه كان سلوك كاميليا فلم تكن هي كاميليا التي عرفها لسنوات طويلة، فلأول مرة لا يفهمها، لأول مرة يراها ولا يشعر بها، ولأول مرة يخيب ظنه بها، فهي من لم تعرف معنى للخبث، هي التي ما تلاعبت بأعصاب شخص ومشاعره يوما فما الذي يحدث الآن، ثم دخلت سهي وهي تحمل صينية بها فنجانا من القهوة وكوب ماء وبجوارها ياسمين وهي تحمل علبة مناديل ليجدا جميل وكاميليا وحدهما وقد اختفى حسن.

سهي ونبرتها مليئة بخيبة الأمل: هو مشي؟

ولم يجاوبها أحد فكان كل منهما يشعر بخيبة أمل.

***

كان حسن يتجول في السفينة كالطفل التائه لا يعلم من أين أتى وإلى أين هو ذاهب حتى رآه منير الذي تردد كثيرا قبل أن يذهب إليه، أيجلس معه ويحاول أن يفهم إن كان يعلم عنه شيئا أم يرحل وكأنه لم يره، أيذهب له فهو صديق عزيز يمر بمحنة شديدة أم يبعد عنه فهو عدو لا يعلم ما يخبئه له ولكن إن كان بالفعل عدو فمن الذكاء أن

يتقرب منه أكثر من أي وقت مضى ليعلم ما يبطنه له فقرر في النهاية أن يذهب إليه، جلسا هما الاثنان سويا أعلى السطح أمام السور الذي ألقى حسن منه فريدة ولم تلتق أعينهم طوال الجلسة فكان كل منهم ينظر أمامه فما التقت عيناهم ولو لمرة واحدة وكأن كل منهم كان يتفادى النظر في عين الآخر، فاتخذوا من جمال الغروب الذي لم يكن يراه أي منهم حجة لئلا يضطروا إلى مشقة النظر في عين بعضهم فكان منير يشعر أنه لو فقط نظر في عينيه سيرى كل ما يخفيه، سيرى فريدة، سيرى خيانته وغدره فهي صريحة في عينيه، فكانت عيناه وكأنها تشهد عليه بما رأت، فلو كان نظر حسن في عين منير في تلك اللحظة لكان رأى فريدة وهي تحكي له عما صار، لكان رأى كل ما وقع بينهما وكأن عينيه قد تآمرت عليه لتفضحه.

كانوا في فصل الربيع عندما ذهبوا هم الأربعة في نزهة سويا وكان ينتهز منير كل فرصة ممكنة للتقرب من فريدة فبمجرد أن يغيب حسن وتغيب نادية سرعان ما يذهب لها ليفاتحها في موضوعهما وهو ما ظلت فريدة ترفضه مرة تلو الأخرى فمرة تقول له كم تحب حسن ومرة أخرى تقول أنها لا تستطيع أن تخون نادية، وكان يوافقها الرأي فهو لا يريد أن يخون نادية أبدا فنادية هي حب عمره ولا يرى غيرها ولا يقوى على أن يجرحها أو يؤذي مشاعرها إنما هو فقط يريد أن يكونا أصدقاء، يتبادلان الحكايات كما كانت تحكي له في الإسكندرية كيف ترى حبه لنادية وكيف ترى علاقتها هي وحسن، قال لها إنه أيضا يريد أن يحكي لها عن كثير من الأشياء فهو لا يطمع في أكثر من ذلك ولكن بالتأكيد لن يتفهموا ذلك حسن ونادية وقد يزعجهم هذا الأمر فليس من الضروري أن يعلما شيئا وكفى منير وفريدة أنهم واثقين أنهم لا يرتكبان أي ذنب أو ما قد يخجلهم يوما ما فهم مجرد اثنين أصدقاء يحكون لبعضهم ما لا يستطيعون حكيه لحسن ونادية وليس ذلك لسبب غير أنهم لا يتحملون إيذاء مشاعرهم، وأعجبت فريدة بشدة

بالطريقة التي صاغ بها منير علاقتهم فقد رفع عنها أي شعور بالذنب، فنعم هي لا تستطيع أن تبوح لحسن أو لنادية عن طبيعة علاقتها بمنير الآن ولكن ذلك لحبها لهم بل كانت أيضا توهم ذاتها أن علاقتها بمنير تصب في مصلحة نادية، فمن خلال علاقتها به تستطيع أن تحل أي خلافات قد تنشب بينهم وتستطيع أن تثنيه عن أي فكرة قد تخطر له بأن يترك نادية بحثا عن الأبناء، فشعرت براحة بال بل شعرت أنها قد أرتقت إلى مرتبة أعلى بصداقتها هي ونادية فهي تفعل كل ذلك لتحافظ لها على زوجها وعلى حياتها هادئة ولتضمن أنه لن يجرحها يوما.

منير: أنت مش لوحدك يا حسن، جرحك هو جرحي وهو جرح نادية، إحنا كلنا شعورنا واحد

فكذبته عيناه مرة أخرى فالشعور ليس واحدا والجرح ليس واحدا، فكيف يتساوى من خان العهد بمن أوفى به؟ بأي حق يتساوى من صدق بمن كذب؟ بأي حق يتساوى من أحب وعشق بمن فجر وغدر؟ بأي حق تتساوى جراح يعجز الزمن عن شفائها بجراح أخرى مصطنعة ومزيفة كصاحبها؟ فحكت عيناه لربما يراهم حسن، حكت كيف أقنع فريدة أن يتقابلوا في شقة والديه المتوفيين حتى لا يراهم أحد ويستطيعان أن يشاركان بعض قصصهم كما يفعل الأصدقاء دون أن يقاطعهما أحد ودون أن يخافا أن يراهما أحد وذهبت إليه فريدة مرة بعد مرة وكانا كلاهما يعلمان بكذبهما، يعلمان أنهم يخادعان أنفسهم، يعلمان أنهما بعاد كل البعد عن الأصدقاء ليس فقط لبعضهما هم الاثنين ولكن حتى لنادية وحسن، فهم لا يعرفان شيئا عن الصداقة فقد تبرأت منهما صداقتهما.

ثم أخذت تتطور علاقتهما شيئا فشيئا ولم تأخذ طويلا حتى انتقلوا من خانة الأصدقاء إلى خانة العشاق، فأخذت مقابلتهم شكلا مختلفا،

اختلفت القصص التي كانا يتبادلونها حتى اختفت تماما عن جلساتهم فلم يعودوا يتقابلوا حتى يثقلوا بعضهم بقصص مملة لا قيمة لها، فكثرت مقابلتهم وطالت جلساتهم التي كانت قد اتخذت شكلا مختلفا تماما، شكل يفضح طبيعة علاقتهما فهي كانت علاقة بين رجل وامرأة اشتعلت بينهما نيران الحب أو هكذا ظنوا، فالنيران كما تشتعل لتضيء الطريق وتبث الدفء في الأجساد قد تشتعل أيضا لتلتهم كل ما يحيط بها، فحينما تشتعل النيران تلتهم الأخضر واليابس، تحرق كل ما حولها لتتركه وكأنه لم يوجد شيء من الأساس، تحرق معها الذكريات والسنين والعمر بأكمله لتبدأ حياة أخرى جديدة بأشخاص جدد لا يعلمون معنى للخيانة أو للغدر. وكانا هم من أشعلا النيران فكان لابد وأن يكونا هم أول من يحترقان بلهيبها ولكن النيران تنتشر سريعا فلا تقف عند من أشعلها فقط ولكنها تصل أيضا لمن لم يوقظها من الأساس لتحرقهم أحياء.

حسن: مش قادر أسامحها يا منير

كان لكلمات حسن وقع قوي على منير حتى أنها جعلته ينظر له لأول مرة منذ أن جلسا سويا، نعم هو عدو، نعم هو يعلم كل شيء، حتما سوف ينتقم مني، حتما سوف يقتلني كما قتلها، ربما الآن، ربما ينهض ويلقي بي حالا في البحر كما ألقى بها.

طال سكوت حسن بعد أن ألقى بجملته في وجه منير أو هكذا شعر هو.

حسن: سابتني لوحدي يا منير وهي عارفة إني مقدرش أعيش من غيرها

أعادت كلمات حسن الأنفاس لمنير مرة أخرى بعد أن كان يشعر بروحه تسحب منه ليشعر براحة وقتية ثم يفكر بعدها أيلاعبه حسن؟

هل يعلم أم لا يعلم؟ هل يقصد ما يفعله؟ هل يقصد أن يبث الرعب في قلبه ثم يعطيه نفسا آخر قبل أن تتوقف نبضاته فقط ليعذبه من أول وجديد؟ لم يعلم منير ولكنه كان تيقن أن النار التي أشعلوها هو وفريدة سويا حتما ستحرقهم جميعا دون أن ترحم أحدا.

***

كانت كاميليا في حجرتها تستعد للعرض وهي جالسة أمام مرآتها المستديرة والصغيرة فهي لا تظهر إلا جزءا من وجهها فتضطر أن تتلفت يمينا ويسارا حتى تستطيع أن ترى وجهها بأكمله وكانت ولأول مرة لا تحتاج أن تضع الكثير من المكياج لتخفي ذبولها فكانت كلما نظرت في المرآة وجدت احمرار في خديها لم تعتده حتى أنها شكت في المرآة ذاتها، فكان قد اختفى ذبولها وشحوبها وكأن ذبولها لم يكن سببه قلة الطعام كما كانت تعتقد بل أنها كانت تحتاج من يعيد إليها الحياة ليضرب الدم في عروقها من جديد لينير وجهها ويزيل عنها ذبولها، ثم طرق باب حجرتها لتجد خلفه رمزي فيزيد وجهها نورا وبريقا.

كاميليا: أنت بتعمل أيه هنا؟

رمزي: وحشتيني، مقدرتش استنى العرض

يقولها وهو يحاول الدخول إلى حجرتها لتضع يدها على صدره ليقف خلف الباب

كاميليا: أنت مينفعش تكون هنا

رغم أنها كانت لا تتمنى سوى أن يظل هنا ولا يبعد عنها أبدا

رمزي: هستناكي بعد العرض في المكان بتاعنا، متتأخريش

أمسك بيدها وأحنى برأسه ليقبلها في لحظة شعرت فيها كاميليا بأنه فليذهب العرض، فليذهب عملها بأكمله فهي لا تريد أن ترقص مجددا، لا تريد أي شيء سوى أن يظل رمزي معها ممسكا بيدها، فتمنت ألا يعود إليها ذبولها مرة أخرى فإن عاد تلك المرة سوف يعود وهو منتصر، سيعود أقوى من ذي قبل فيتملكها ولن يغادرها أبدا.

خرج رمزي ليجد جميل واقف عند أخر الممر، كان يقف منذ أن طرق رمزي بابها لكن لم تلاحظه كاميليا، لم تلاحظ شيئا على الإطلاق فوجود رمزي كان ينهي العالم كله وراءه، أحنى رمزي رأسه محييا جميل الذي لم يرد التحية، ظل ثابتا في مكانه ينظر إلى باب غرفة كاميليا الذي أغلقته وبدأ يشعر وكأن الممر أخذ يضيق به حتى أصبح لا يتسع له، شعر وكأن المكان يلفظه، لم يعد ينتمي لذلك المكان بعد الآن فشعر وكأن ضيق الممر يفتك بجسده كله، حتى حواسه رفضت ما رأته، فلم يفهم لماذا كان الناس يسيرون حوله بالتصوير البطيء ولماذا الأصوات تخفت من حوله فلم يعد يسمع سوى صوت أنفاسه الثقيلة ونبضات قلبه التي علت بشدة وكأنها تطرق صدره راجية الرحيل، فظلت تطرق بقوة وكأن أصابها شيء من الجنون أو كأن شيئا ما يحدث يدفعها إلى الهرب خوفا منه فكانت تستغيث ليسمعها أحد. خرجت كاميليا من حجرتها لتتجه إلى جميل ويقتحم صوتها سكونه، لم يسمع بوضوح ما قالته له لكنه كان يرى شفتيها تتحرك وهي توجه إليه حديثها ولأول مرة لا يجاوبها، لأول مرة يتركها ويستدير ليسير بعيدا عنها، فكان يشعر وكأن قلبه الذي تركه بين يديها حتى ظنت أنه لعبتها تفعل به ما تشاء وتحركه كيفما شاءت قد أفلتته من يدها عندما أخذها رمزي ليقبلها دون حتى أن تهتم بما أصابه، دون أن تلاحظ حتى أنها أضاعته من بين يديها وكأن قبلته على يدها أنستها ما كانت تمتلكه بين يديها من الأساس.

وقف جميل يشاهد العرض من الكواليس، ويقال إن للحزن خمس مراحل تبدأ بالنكران وصولا إلى التقبل وكان جميل يعلمهم جيدا فقد ظل أسيرا لهم على مدار سنوات فلكم أنكر شعور كاميليا تجاهه، فلكم أنكر عدم اهتمامها، فلكم أنكر ضعفه أمامها حتى وصل به الأمر أن أنكر حبه هو لها من الأساس ثم عندما فشل النكران فكان حبه لها يشتعل في عينيه قبل قلبه ليكذب كل من أنكره وجد نفسه غاضبا بشدة، كان شديد الغضب منها فلماذا هي لا تشعر به وهو يكن لها عظيم الحب فماذا تريد هي أكثر من ذلك، هل تظن أنه خلق على وجه الأرض من قد يحبها أكثر منه، ثم يتحول غضبه منها إلى غضب من ذاته فلماذا يحبها إلى ذلك الحد الجنوني حينما هي تؤكد له في كل مرة أنها لا تراه بتلك الصورة، لماذا هو أضعف من أن ينزع حبها من قلبه، لماذا لا يقدر على نسيانها ثم عندما لا يجد أي إجابات لكل أسئلته ينتقل إلى المساومة فكان يساوم القدر أنه إذا أحبته كاميليا سوف يفعل أي شيء، لو فقط يستطيع أحد أن يخبره ما الذي عليه فعله حتى يفوز بحبها، وعندما يدرك أنه لا يوجد ما قد يفعله يغرق في حزنه ليذوب بداخله حتى يصير هو والحزن شيئا واحدا فلا يتبقى أمامه سوى أن يتقبل الأمر الواقع وهو أن كاميليا لن تكون له مهما تمنى هو ذلك.

ثم يمر جميل مرة أخرى بالمراحل الخمس للحزن وهو وراء الكواليس يشاهد العرض ولكن تلك المرة يمر بهم سريعا واحدة تلو الأخرى وكاميليا ترقص أمامه خلال دقائق العرض، فيتملكه شعور قوي بالنكران، فبدأ ينكر كل ما رأته عيناه، بدأ ينكر هوانه عليها، ينكر الحب الذي يراه في عينيها وهي تنظر لرمزي وترقص أمامه بل ترقص له هو فقط ثم انتقل سريعا إلى الغضب فانتابته رغبة شديدة في أن يقتحم المسرح ليصرخ بهم جميعا بدءا بكاميليا وصولا إلى رمزي وجميع

الحاضرين، كان يود أن يصرخ بهم ألا تشعرون بقلب ينزف حبا لمن لم تره يوما وأنتم جالسون ترقصون وتأكلون وتضحكون، ألا تشعرون بقلب ظل يتألم في صمت ولم يجد من يحنو عليه، ألا تشعرون بمن ذبح ألما؟ وإن كانوا جميعهم لا يشعرون فكيف لا تشعرين أنت يا كاميليا، بالطبع تشعرين بالنار التي أشعلتها بداخلي، بالطبع تعلمين كم أحببتك فلكم شكيت لك لكنك كنتِ لا تستمعين ثم يلتفت إلى رمزي ويصرخ به غاضبا، من أنت لكي تأتي في لحظة وتطيح بي، تحطمني إلى هذا الحد، من أنت لتحبك كاميليا، ماذا فعلت أكثر مما فعلته أنا، ثم يبدأ أن يساومهم سوف أنساكِ يا كاميليا ولن أقترب منكِ أو أزعجك مجددا فقط خذيه بعيدا فأنا لا أقدر أن أشهد حبك له، سوف يكون هذا فوق طاقة احتمالي، أرجوك يا كاميليا أنا ما جرحتك يوما ولا أذيتك يوما وكل ما كنت أفعله كان لإسعادك فلا تجرحيني إلى تلك الدرجة فأنا لا أستحق منك ذلك، ثم ينتقل إلى مرحلة الحزن التي لا يغادرها أبدا فمهما تنقل بين المراحل فلابد وأن يعود للحزن وكأنه فُصل له وكأن بينهم مودة فيشعر براحة بداخله فكان الحزن لا يفارقه أبدا حتى أنه كان يصاحبه أثناء تنقله بين المراحل فكان لصيقا به عندما أنكر ليذكره أنه ما يخادع إلا نفسه وكان لصيقا به حينما غضب ليحاول تهدئته قبل أن يؤذي نفسه أو يؤذي أحدا فيكون بجواره ليذكره أنها مجرد مرحلة مؤقتة وسرعان ما سوف تعود لي حتى تستقر عندي وكان أيضا يلازمه وهو يساومهم، فدائما ما كان يساوم من موقف ضعف ولا مرة كان يساومهم من موقف قوة وحتى عندما تقبل أن يرى في عينيها حبا لرمزي وهي ترقص أمامه على المسرح كان هو من يربت على كتفه حتى استطاع أن يتقبلها فكانت تلك هي اللحظة الأصعب على الإطلاق.

انتهي العرض ورجاء تستشيط غضبا فقد وقفت عند المرحلة الثانية ولم تستطع أبدا تجاوزها، فكانت قد تأكدت من تلميحات ليلى وغضبت بشدة أنها لم تلاحظ منذ البداية فما كان ينقصه سوى أن ينطق بحبها وهو بكل ما فيه يشاهدها وهي ترقص وكأنها ملاك هبط من السماء، كيف لم تلاحظ تلك المهزلة من قبل، ربما لأنها لم يخيل لها أن يقع ابنها بحب فتاة تستخدم جسدها لتسلية النزلاء وهم يتحدثون ويتناولون العشاء، فهم يستخدمونها في السفينة لكي لا يمل الركاب وليس ليحبها أحدهم فهي مثلها مثل الطعام الذي يقدم لهم فهي ضمن البرنامج الذي دفعوا ثمنه مسبقا.

***

وما أن انتهي العرض حتى سارعت كاميليا إلى أعلى السطح في انتظار رمزي الذي لم تعط له رجاء فرصة للذهاب إليها، فبعد أن انتهي العرض طلبت منه أن يرافقها إلى حجرتها لوجود أمر مهم ولم تفلح كل محاولاته لتأجيل ذلك الأمر فقرر الذهاب معها لينهي الأمر سريعا ويلحق بكاميليا. ساروا سويا في الممر في طريقهم إلى الغرفة وكانت رجاء تسير بخطوات بطيئة بعكس رمزي الذي كان في عجلة شديدة من أمره، ظلت تنظر له وهي تتذكر يوم ولادته وكيف كانت تتألم حينها حتى أنها شعرت بذات الألم مجددا وهم يسيرون في الممر، وكيف استطاع هو أن يزيل عنها كل الألم بمجرد أن لمست يداها يديه الصغيرتين وكيف أخذت يداه الصغيرتان تكبر شيئا فشيء بين يديها حتى اختفت يد الطفل الصغير التي كانت تغوص بين يديها لتتحول إلى يد رجل تملئ يديها التي ملأتها التجاعيد وترك عليها الزمن الكثير من آثاره، وظلت تشاهد الجزء الأعز منها في رحلته التي بدأت وهو طفل يركض نحوها ليدخل يده في يدها ليحتمي بها وصولا إلى يد الرجل التي انفلتت من يديها عندما سحبها هو منها في محاولة منه لاتخاذ خطوات

أسرع وصولا إلى الغرفة لإنهاء الموضوع في أسرع وقت ممكن حتى فشل في تسكين آلامها تلك المرة فلم يعد هو الطفل الذي تحمله بين يديها كلما شعرت بألم ليخفف عنها آلامها إنما هو الآن رجل كبير لا يكترث أن يضع يده في يديها مهما كانت تحتاج هي لذلك فهو الآن لديه اهتماماته ومشاغله الخاصة ويوجد من هي في انتظاره فهو لا يملك وقتا لأن يسير وهو ممسك بيدها بل أنه لو كان له الاختيار ما كان أتى معها من الأساس، وكانت تحاول هي أن تحبس دموعها من قسوة الأفكار التي تدور في رأسها حتى وصلوا إلى الغرفة وكان رمزي يحاول أن يفهم سريعا ما هو ذلك الأمر الضروري وكانت رجاء ولأول مرة لا تعلم ماذا تقول فكلما تقوى على الحديث تجد نفسها تسكت سريعا فيغضب رمزي أكثر فهو لا يملك الكثير من الوقت وكلما زاد غضب رمزي كلما زاد حزن رجاء فلكم ألغت أهم المواعيد ولكم اعتذرت عن أحلى السهرات فقط لتكون بجواره، فقط ألا تتركه وهو يحتاجها، وهو لا يستطيع أن يصبر عليها دقائق، فهو لم يجلس من الأساس بل ظل واقفا من شدة التعجل حتى أنه قد زاد من صعوبة الأمر عليها ولكن كان قد نفذ صبره فاستأذن منها واتجه ناحية الباب في طريقه إلى الخروج فوجدت نفسها تنطق بالكلمات سريعا وتلقائيا لتمنعه من المغادرة.

رجاء: لو بتفكر تقضي معاها يومين، أنت حر، لكن لو كانت دماغك صورتلك أنك تفكر في أي حاجة أكتر من كده تبقى إتجننت.

استطاعت كلمات رجاء أن توقفه تماما في مكانه وتذهب بكل استعجاله فأغلق الباب ثانية بعد أن كان فتحه وكان كل منهما ظهره لظهر الآخر فما أن سمعت رجاء صوت غلق الباب حتى علمت أن كلماتها قد أفلحت في استبقائه وكأن خوفه من فقد كاميليا هو ما أعاده إليها فما عاد إلا ليحافظ على حبه لها ما عاد إلا ليقول لها إنه

لا يقضي معها يومين فأمه لم تربيه على ذلك ولم يتخيل أن تطلب منه ذلك، لم تستطع رجاء أن تمتلك أعصابها فصرخت به قائلة إن هي ومن مثلها من فتيات لا يعرفن غير ذلك ولا يطمعن في أكثر من ذلك، أخذت تذكره من هو فمن الواضح أن حبه لها قد أنساه من يكون ثم أخذت توضح له من هي فمن الواضح أيضا أن حبه لها قد أعماه أن يرى أكثر الأمور وضوحا، أخذت تصرخ أتلك من تريدها أما لأبنائك، أتلك من سوف تربي أبناءك، أتلك من سوف تصطحبها معك في عشاءات العمل، ماذا ستقول هي لزوجات زملائك في العمل، ماذا ستحكي لهن، أستحكي لهن عن تاريخها، عن عملها، أم ستصعد فوق مائدة العشاء لترقص لهن بين الأطباق، أتلك من ستعلم أبناءك، وماذا سوف تعلمهم ماذا لديها لتنقله إليهم، أم ستعلمهم كيف يرقصون على السفن والبواخر؟

وكانت كاميليا في ذات الوقت ما زالت تنتظره أعلى السطح وكانت تدندن أغاني العرض في محاولة منها أن تضيع الوقت حتى يأتي إليها ثم بدأت أن تشعر بالبرد يخترق عظامها حتى يقشعر جسدها، فكان الهواء شديد البرودة في تلك الليلة وظلت تنظر ناحية السلم كل دقيقتين حتى أصبحت لا ترفع عينيها عن السلم في انتظار صعوده وطال انتظارها حتى بدأ أن يذبل الأمل في عينيها فنظرت إلى السماء داعية ربها وقد تملكها شعور شديد بالخوف ألا يكون قد نساها، فماذا قد يكون شغله عنها وهو يعلم أنها واقفة في البرد لتنتظره، حتى سمعت صوت أقدام تسير خلفها فردت إليها الروح فكانت ظنت أنه قد تم الاستجابة لدعواتها فالتفتت سريعا لتركض إليه لتفاجئ أنه ليس رمزي، أنه حسن فتضاعف شعورها بألم البرد وكأنه بعد أن أقتحم عظامها قام بتكسيرها كلها مرة واحدة، فشعرت بألم شديد وكأن جسدها كله ينكسر في ذات اللحظة حتى أن انتفض جسدها بأكمله

وكان حسن يقف وراءها منذ فترة لكنها لم تكن تشعر به، فكان رمزي هو كل ما تفكر به حتى أن علت صوت دعواتها فقد سمعها حسن وهي تدعي لكي لا يغيب عنها، لكي لا يتخلى عنها فهي تحتاج إليه بشدة وعندما رآها حسن وهي تقف بظهرها تعلوها النجوم وهي تحدث السماء شيئا ما بداخله كان على يقين أنها هي من رأته لكنه لم يكن يمتلك دليلا على ذلك أو ربما لم يكن يريد أن يمتلك دليلا، ولمست دعواتها قلبه، شعر بضعفها وخوفها، وكان يشعر ببراءتها فهي لا تستحق تلك المعاناة، لا تستحق أن تحب من لا يشعر بها، من يدفعها أن تقف في وسط تلك البرودة الشديدة لتترجى ربها ألا يبعد عنها فمن المفترض أن يكون بجوارها ليطمئنها ويحميها من البرد القارس الذي عصف بها ويزيل عنها أي خوف قد تسبب هو به.

احتدم النقاش بشدة بين رمزي ورجاء، فأخذ رمزي يشرح لها كم هي بريئة، نقية، لم تؤذ بحياتها أحدا، تمتلك مشاعر جميلة لكل من حولها، أخذ يشرح لها كم أنه يرى نفسه في عينيها، يرى كل ما حلم به يوما في عينيها، يرى الحياة بأكملها في عينيها.

وكانت هي في ذات الوقت تحاول الهروب من حسن ولكنه كان يحاول أن يبقيها تماما كما كانت تحاول رجاء أن تبقي رمزي، كان يحاول أن يبقيها لأنه أشفق عليها، لأنه شعر بحزنها، ضعفها وخوفها، طلب منها أن تجلس معه بعض الوقت وكانت تشعر أنه لا خيار أمامها، وشعرت بوحدة شديدة فجميل ليس معها فظلت تبحث عنه وتتلفت حولها لتجده وهي تعلم جيدا أنها لن تجده ولكن شيئا ما بداخلها كان يتمنى أن يراه.

ولم يجد حسن ما يتحدث عنه سوى فريدة والموت فأصبحت فريدة والموت شيئا واحدا، أخذ يقول لها أن الموت مفجع خاصة إذا

جاء على غفلة دون سابق إنذار، الفراق كله مؤلم ففكرة أن أكثر من أحببته وأكثر من تمنيته قد غادر عنك ليتركك وحيدا في دنيا غريبة، فنعم هي غريبة مهما طال وقتك فيها، فكرة في شدة القسوة ورغم تكرارها في كل لحظة إلا أننا لا نعتدها أبدا ولا نألفها أبدا فتظل هي الخوف الأبدي الذي يتملكنا جميعا.

سوف تشتد عليك قسوة الاشتياق، سوف تتمني ولو مقابلة أخيرة تحتضنيه فيها لتقولي له كل ما منعتي نفسك من قوله يوما وربما تتساءلين إن كان يراك هو الآن، هل يعلم كم اشتقت إليه، كم تعذبت في غيابه، هل يرى دموعك التي تسيل كل ليلة، هل يفتخر بما وصلت إليه، هل هو في انتظارك، هل سوف يكون هناك مقابلة أخرى، هل ستجمعكم دنيا أخرى أم أن القصة بأكملها قد انتهت دون رجعة. من يحبك حقا لن يختار لك أبدا هذا الشقاء، لن يتركك تتساءلين إن كان يشعر بكم اشتياقك له،إن كان يعلم كم تعذبت في غيابه، لن يقوى على إسالة دموعك، ولن يجعلك تتساءلين إن كان هو أيضا في انتظارك، إن كنتما ستجتمعان مرة أخرى، بل أن من يحبك حقا لن يتخلى عنك مهما صعبت الظروف، سوف يتخطى أصعب العقبات ليصل إليك، لن تمنعه قوة على الأرض عنك، فإن تأخر اصبري لعله لديه عذره، ربما تأخر من أجلك وأنت لا تعلمين ولكن يوم أن تشعري أنه تأخر فقد هان عليه اشتياقك، عذابك وانتظارك له في عز البرد وأنت تدعين السماء لكي لا يغيب فلا تبكي غيابه أبدا بل كوني شاكرة أن انكشف لك ذلك فهو لم يحمل لك خيرا أبدا. وكانت تشعر كاميليا وكأن حسن يعلم القصة بأكملها وكأنه يعلم أنها واقفة في انتظار رمزي الذي لم يأت حتى الآن حتى أنها ولوهلة كانت سوف تسأله ما الذي أخره وهل تأخر من أجلها أم أنه قد انشغل عنها فكانت تشعر أنه يعلم كل شيء والغريب أنها شعرت بارتياح شديد تجاهه حتى أنه لم يعد

بحاجة إلى أن يبذل مجهودا ليبقيها فكانت هي من تريد البقاء فشعرت بشعور تعجبت هي له بشدة شعرت وكأنها وجدت جميل.

أما رجاء فقد وجدت توفيق الذي اضطرت للجوء إليه بعد أن فشلت كل محاولاتها مع رمزي ولكن كان لتوفيق رد فعل مفاجئ بالنسبة لكلاهما فأخذ الموضوع ببساطة شديدة فتلك هي حياته ونحن لن نعيشها بدلا منه ولا يحق لنا أن نفرض عليه حياة غير التي يتمناها ويرى أنها مناسبة له، فقد كبر ونضج ويستطيع أن يتحمل مسئولية قراراته حتى أنه طلب من رمزي أن يعرفهم عليها بعد أن تنتهي من إقامة عرضها باكرا ولم يكن رمزي مطمئنا لحديث والده وهو يعرفه جيداً فوالده أشد شراسة من والدته بكثير فرد فعله كان غير متوقع ولا يليق به بل هو بالتأكيد يخطط لشيء آخر ولكنه كان لا يبالي لما يخطط له الآن فكان كل ما يفكر به هو أن يسرع إلى كاميليا فكان يركض من الغرفة إلى أعلى السطح وكان يقفز على السلالم حتى يصل إليها في أسرع وقت ولكن كانت ذهبت كاميليا بعد أن طمأنها حسن أن من يحب حقا لا يتأخر أبدا وأن وجد ما يضطره للتأخير فبالتأكيد يكون لصالح من أحب.

***

كانت نادية ومنير يجلسان في المطعم لتناول الإفطار في صباح اليوم التالي حتى اقترح منير اقتراحه الغريب جدا بالنسبة لنادية

منير: ما تيجي نسافر

نادية: وهو أحنا لسه وصلنا علشان نسافر

فأخذ منير يشرح لها أنه لا يريد أن يتركها وحيدة في المنزل فبالتأكيد سيضاعف ذلك من حزنها فلأول مرة ستكون وحيدة دون فريدة وهو لا يريد أن يصعب عليها الأمور، وبالطبع كان يكذب كيفما كان دائما

يكذب فما كان يتفوه بغير الكذب لكن السبب الحقيقي هو أنه يفكر في الهروب من حسن ومن الشكوك التي تملكته ومن خوفه، كان يريد أن يأخذ نادية ويبعد حتى لا يستطيع أن يصل حسن إليهما، كان يريد الهروب مما ارتكب، الهروب من ذنبه، فهو أضعف من أن يواجهه، فكان يمتلئ رعبا عندما تتملكه فكرة أن حسن يعلم كل ما دار بينه وبين فريدة وأنه بالتأكيد سوف يؤذيه كما أذاها وبالتأكيد سوف تعلم نادية كم خذلها وبالطبع سوف تكرهه ويخسر هو كل شيء وكان الحل الوحيد الذي صوره له ذكاؤه المحدود وطبيعته الأنوية هو أن يأخذ نادية ويهرب بعيدا، ولكن لم تلق الفكرة ترحيبا لدى نادية فقالت إنه على العكس هي بحاجة أن تستريح في بيتها الذي تملأه الذكريات التي جمعتهما سويا منذ ربيع العمر حتى نهايته فكل ما في البيت يذكرها بفريدة وبحياتهم وذكرياتهم وهذا هو كل ما تبقى لها فهي لا تستطيع أن تتركه وتبعد عنه فهو الشيء الوحيد الذي قد يحتويها فهي تريد أن تغرق في ذكرياتهم، أحلامهم، أيامهم وسنواتهم التي قضوها معا ويقف بها الزمن هناك لتنسى كل ما صار بعدها. ثم انتقلوا إلى أعلى السطح وكانت جلستهما سمتها الصمت فلم يحدث أي منهم الآخر، لم يفارق حسن خياله حتى أن وصل به الأمر أن فكر أن يتخلص هو منه ليغلق ذلك الباب تماما لكن سرعان ما تراجع عن تلك الفكرة فبالتأكيد لو فعل ذلك سوف تسوء الأمور أكثر وسوف يزيد الغموض حول القضية أكثر حتى أنه من الممكن أن يتهم هو في قتل حسن وفريدة معا. وكانت تفكر نادية لماذا دائما تشعر وكأن الحياة تساومها فعندما كانت طفلة صغيرة تحقق حلمها يوم أن أباح لها منير بحبه لها حرمت من الإنجاب فكان عليها الاختيار أما منير الرجل الذي عشقته منذ أن كانت طفلة صغيرة أو الأبناء التي كانت تحلم بهم كما كانت تحلم بمنير وكأنه ليس من حقها أن تجمع بين الاثنين وكأن الدنيا استكثرتهم عليها فأما ذلك

أو ذاك فكان عليها أن تقوم باختيار شديد القسوة ففي تلك الحالتين ستتخلى عن حلم عزيز طالما رافقها سنوات عمرها ثم تذكرت كيف أن منير في الفترة الأخيرة كان قد بدأ يعاملها بجفاء موجع وكأن مشاعره تجاهها قد ذبلت، شاخت وأشرفت على الموت ولم تكن تعلم سبب لذلك فمشاعرها ما زالت كما هي لم يقدر شيء على زعزعتها حتى جفاء مشاعره وشعورها بذبولها لم يقدر على تغيير مكانته في قلبها الذي كان يمتلئ بحبه فكان حبه يسكن قلبها ويأبى الرحيل وكانت فريدة هي الوحيدة التي تشكو لها بعده عنها، الوحيدة التي ترتمي في أحضانها لتذرف كل الدموع التي لا يسمح لها كبرياؤها أن تظهرها إلا لها فهي الوحيدة التي تستطيع أن تحكي لها كم تغير معها، كم لم يعد هو وكأنه أصبح غريبا عنها لا تعرفه، هي الوحيدة التي كانت تكشف لها ضعفها والكسر الذي أصابها به منير فكان بعده عنها الذي لا ترى له مبررا يكسر قلبها، يكسر نفسها بل يكسرها هي ذاتها وكانت فريدة هي الوحيدة التي تستطيع أن تهون عليها كل ذلك وتذكرها كم يحبها منير وربما هو فقط مشغول أو مضغوط في عمله لكن بالتأكيد أنه سرعان ما سوف يعود إليها ولو كانت فقط نادية تعلم أن السبب الحقيقي وراء بعده هي الأفعى التي ارتمت في أحضانها لتبكي لها، هي الحية التي لفت ذراعيها حولها لتخفف من آلامها التي أصابتها بها بعد أن أطلقت سمومها في جسدها لتجري في دمائها، ثم الآن وقد انصلح حال منير فهو بجوارها طوال الوقت لا يفلت يده من يدها، يحاول التقرب منها حتى أنه يود أن يأخذها ويسافر بعيدا، كانت هي فقدت فريدة وكأن الدنيا تساومها مجددا إما فريدة أو منير لكن تلك المرة عفتها الدنيا من قسوة الاختيار فاختارت لها أن تحرمها فريدة فكفى عليها منير ولكن كان الواقع أمر من ذلك فكانت الدنيا قد حرمتها فريدة ومنير معا في ذات اللحظة حتى وإن كان بجوارها ممسكا بيديها ولكن الفكرة الأقسى

ليس أن الدنيا حرمتها فريدة ومنير ولكن أن الدنيا اختارت لها فريدة ومنير منذ البداية.

ولما طرح منير فكرة السفر سرعان ما أتى في ذهنه هو ونادية سفرية كانت فارقة في حياتهم جميعا، سفرية بورسعيد، لو كانوا فقط يعلمون ما تخفي لهم تلك السفرية ما كان سافر أحد، ما كان فارق أحد بيته بل لربما كان أنهي منير وفريدة علاقتهم المليئة بالخذلان، فمنذ تلك السفرية انقلبت دنيتهم جميعا رأسا على عقب، كانت تلك السفرية هي الوقود للنار التي أشعلتها فريدة ومنير. كان حسن عليه أن يسافر أسبوعا ليحضر مؤتمرا طبيا خارج البلاد ووعد فريدة أنه سوف يعوضها عن ذلك الأسبوع فمنذ أن علم بالمؤتمر حتى سافر إليه وهو لا يتحدث سوى عن كم سوف يشتاق إليها فهو أبدا لم يغيب عنها تلك المدة وأخذ يشرح لها كم هو مضطر للسفر ولولا حاجة العمل ما كان تركها وحيدة ولم يكن يخطر بباله أبدا كم كانت هي سعيدة بذلك المؤتمر بل كانت تتمنى ليطول أطول فترة ممكنة فلم أسبوع فقط، سبعة أيام سوف يمرون سريعا جدا عليها هي ومنير لماذا هو ليس أسبوعين أو حتى شهر بأكمله فكان لديها خطة أخرى فقد اتفقت مع منير أن يستغلوا سفر حسن خارج البلاد ليسافروا هم سويا ربما إلى بورسعيد واتفقوا أن يقول هو لنادية أنه عليه أن يسافر إلي بورسعيد كما طلب منه صاحب العمل لينهي بعض الأوراق هناك وستقول هي إنها استغلت سفر حسن لتسافر إلى والدتها في الإسكندرية فهي لم ترها منذ زمن وحزنت نادية بشدة فبعدهم عنها هم الاثنان في نفس الوقت سوف يكون مريرا عليها فستفضى عليها دنيتها، سوف تكون وحيدة تماما، كانت تتمنى أن يمر ذلك الأسبوع الأسود سريعا فهو ثقيل جدا عليها تقضي اليوم بأكمله وحدها، تأكل وحدها، تنام الليل وحدها، فهي لم تجد من تحدثه طوال الأسبوع فشعرت بوحدة قاتلة، كانت

الساعات لا تمر عليها وتأتي بأفكار مخيفة جدا بالنسبة لها فماذا سوف يحل بها إذا في يوم فقدت منير، ماذا سوف يحل بها إذا في يوم فقدت فريدة، كيف لها أن تعيش في تلك الدنيا وحيدة فالوحدة مؤلمة تتغذى على صاحبها وتعذبه حتى الموت ثم تفكر ماذا لو كان لديها أبناء وبنات الآن فبالتأكيد ما تفقده كل يوم يفوق خيالها كانت تبكي وحدها ولا تجد من يواسيها فالجميع قد سافر وكانت تحسب الأيام بل الساعات حتى موعد رجوعهم وكان فراقهم لمجرد أسبوع واحد وكأنه فراق دهر بأكمله أما منير وفريدة فكانوا يستمتعون بكل لحظة ويحسبون الساعات حتى لا تمر فكانوا يحتفلون بكل لحظة تمر عليهم وهم وحدهم بعيدا عن حسن ونادية كانت تقضي فريدة ساعات طويلة أمام المرآة لتظهر في أحسن صورة فكانت شديدة الاهتمام بمظهرها بينما كانت تقضي نادية ساعات طويلة أمام المرآة لتتفحص الشعرات البيضاء التي بدأت أن تظهر في رأسها والتجاعيد التي ظهرت أسفل عينيها لتكون مجرى لدموعها التي ما توقفت يوما وكانت فريدة تحدث نفسها في المرآة لتقول لها كم هي جميلة بينما كانت نادية تحدث نفسها في المرآة لتقول لها كم هي وحيدة، كانت فريدة ومنير يتجولون في شوارع بورسعيد ليلا بينما تجلس نادية وحيدة في منزلها الذي يوما جمعهم جميعا ليتآمروا عليها حتى وصلوا لآخر يوم في تلك السفرية وكان منير وفريدة يتجولون بين المحلات ليشتروا الهدايا لنادية وكانوا يسيرون في الشوارع غير مكترثين أن يراهم أحد فلا يعرفهم هنا أحد حتى وجدوا ذلك الرجل الذي كان يلتف حوله أهالي بورسعيد وكأنه أتى بنبوءة جديدة فأثار فضول فريدة بشدة فكانت تسير له كالمجذوبة ولم تهتم لكل حديث منير بأن عليهم أن يتحركا سريعا فما هو إلا دجال ونصاب لن يضيعوا وقتهم معه دخلت فريدة وسط الدائرة التي كانت تحيط به وهو يتوسطها ليبهر الحضور بخفة

يده وألعابه التي لا يقوى بشر على فعلها حتى أن وقعت عيناه على فريدة فشاور لها برأسه دونا عن الحضور أجمعين أن تقترب فذهبت إليه دون تفكير وحاول منير أن يجذبها من ذراعها ليمنعها من الذهاب إليه لتفلت هي ذراعها من يده بكل انسيابية وتلقائية وكأن ذراعها يتصرف وحده دون إشارة منها.

الرجل: معاكي خاتم

فريدة: لا

فينزع الرجل خاتما من يده ويمسك بيد فريدة ليضع الخاتم بداخلها ثم يغلقها جيدا وهو محكم قبضته على يدها وينظر في عينيها بشدة وكأنه يرى شيئا ما، شيء مخيف أشفق عليها منه وكانت ترى هي ذلك في عينيه كانت تعلم أنه رأى ما تخفيه لها الأيام فقد تبدلت عيناه وكأن ألبستهم روح أخرى هي من ترى الغيب فما أن أغمض عينيه وفتحها حتى وجدت عينا أخرى غير التي كانت تتباهي بالألعاب وسط الأهالي بل عين مطلعة على ما بداخل الأنفس فكانت تشعر أنه رأى ما بداخلها، كأنه علم ماذا أتى بها إلى بورسعيد، كأنه رأى خاتمتها التي أخافته هو شخصيا ثم قال لها إن الخاتم الآن أصبح في حقيبتها فأسرعت بفتح يدها لتجدها فارغة فبحثت سريعا في حقيبتها لتخرج منها الخاتم وهي يتملكها شعور أنها قابلت ذلك الرجل لينقل لها رسالة بل أنها أتت إلى بورسعيد من الأساس لتتلقى تلك الرسالة أما منير فظل مستهزئا بكل ما يحدث فما ذلك إلا دجل وشعوذة ليس أكثر ثم قال لها الرجل أن لذلك الخاتم قصة جميلة وسألها إن كان لديها الوقت لتسمعها فأومأت برأسها بالموافقة فقد توقف الوقت بالنسبة لفريدة ولم يعد له قيمة إلا لسماع الرسالة التي كانت تشعر أنها وجدت هنا من أجل أن تصلها فحكى لها أنه كان هناك ملك طلب يوما

من وزيره الذي كان يريد التخلص منه أنه عليه أن يأتي له بخاتم له قدرة خاصة فهو يستطيع أن يجعل الحزين عندما ينظر إليه يفرح ويجعل السعيد يحزن وأعطى له مهلة لإيجاد ذلك الخاتم وكان الملك يعلم أنه لا يوجد مثل ذلك الخاتم من الأساس ولكنه كان يتلاعب بوزيره الذي ظل يبحث عن ذلك الخاتم دون جدوى فمرت الأيام والليالي ولم يصل لشيء حتى أشرفت المهلة على الانتهاء ولم يكن يعلم الوزير ماذا عليه أن يقول للملك فكان يسير وسط الأسواق ووجد بائعا فقيرا فسأله أسمعت يوما عن خاتم سحري له القدرة أن ينسيك سعادتك وله القدرة أيضا أن ينسيك أحزانك فابتسم البائع وأخذ بخاتم متواضع من صندوق قديم كان يوجد بجواره وحفر شيئا ما على الخاتم وأعطاه للوزير، الذي أنير وجهه بمجرد أن نظر إليه وصرخ قائلا هذا هو الخاتم وأعطى البائع كل ما كان معه من أموال مضيفا أنه لا يوجد ما يكفي ليشكره وذهب الوزير إلى الملك وكان القصر في تلك الليلة مليء بالضيوف استعدادا للاحتفال فسأله الملك حين رآه هل وجدت لي خاتما يجعل الرجل السعيد حزين ويجعل الرجل الحزين سعيد؟ فاهتزت القاعة من الضحك فكانوا جميعهم يعلمون استحالة طلب الملك ولكن فاجئ الوزير الجميع بابتسامة تعلو وجهه وهو يقدم الخاتم للملك فبمجرد أن نظر الملك للخاتم تلاشت الابتسامة المرسومة على وجهه ونظر إلى ضيوفه الذين ملأوا القاعة والموائد المفروشة بأطباق التقديم اللامعة ويملأها أفضل أنواع الطعام وسالت دموعه من عينيه فقد تملكه الحزن وساد الصمت في القاعة بأكملها، خاتم يبكي الملك!! تعجب الجميع ثم نظر إلى الخاتم مرة أخرى فعادت له ابتسامته، وما أراد شخص من الحضور شيئا في تلك اللحظة سوى معرفة المكتوب على ذلك الخاتم فقال الملك "وهذا أيضا سوف يمر".. تسمع فريدة تلك القصة وهي منتبهة لكل كلمة فيها

فكانت الرسالة لها هي قبل أن تكون للملك وطلب منها الدجال أن تحتفظ بالخاتم وطلب منها أن تنظر له في كل مرة تحزن لتتذكر أن الحزن لن يدوم وأن الفرح آت لا محالة ثم طلب منها أن تنظر له أيضا كلما فرحت وهنا اختلس الدجال نظرة سريعة إلى منير وكأنه يقول لها إن سعادتك مع منير لن تدوم طويلا فالفرح أيضا لن يدوم وسوف يعقبه حزن شديد ثم طلبت منه فريدة أن يتنبأ لها بالمستقبل فابتسم الدجال وقال لها لقد تنبأت بالفعل انتبهي لكلامي ومنه سوف تعلمي المستقبل ليتدخل منير سريعا في الحديث ليأخذها من يدها ليسيرا بعيدا عنه وتظل هي تنظر له في عينه وينظر هو في عينيها وكأنه يذكرها جيدا بما قال. عاد منير وفريدة إلى القاهرة مجددا بعد أن اشتروا لنادية الكثير من الهدايا والفساتين التي اختارتها لها فريدة ورغم أنها لم تشتر لنفسها سوى فستانا واحدا ولكنها ملئت حقيبة منير بفساتين وهدايا لنادية وكان كل ما يشغل بالها وتتحدث عنه طوال طريقهم للعودة هو ذلك الرجل وما قاله لها.

فريدة: أنا خايفة قوي من كلام الراجل ده

منير: هو مقالش حاجة تخوف يا فريدة، هو مقالش حاجة أصلا

فريدة: قال يا منير، قال بس أنت مفهمتش

وما أن عاد منير إلى المنزل حتى ركضت نادية إليه واحتضنته بشدة وكأنه أعاد لها الحياة مرة أخرى فكانت أول مرة تبتسم منذ أن سافر حتى أنها نست مرارة وقسوة ذلك الأسبوع بمجرد أن نظرت في عينيه ولمست يداها يديه، نست كل عتاب كان في قلبها له، نست أي حزن شعرت به فشعرت مجددا وكأن الحياة تساومها، أتريدينه حتى وإن كنت تشعرين بذبول مشاعره أم لا تريدينه على الإطلاق فاختارت أنها تريده أيا ما كانت مشاعره، مهما اهتزت ومهما تقلبت وتبدلت فهي

تريده، فستعوض غياب مشاعره بمشاعرها هي فكفى عليها تلك الفرحة التي تشعر بها الآن وهي بين ذراعيه حتى بدأت أن تبكي في حضنه ولم تكن تعلم على ماذا تبكي، أتبكي فرحا لرجوعه أم تبكي بعد ما عانته طوال ذلك الأسبوع وأخذ منير يمسح دموعها بيده ويمسح على قلبها وهو يقول لها كم اشتاق إليها وهي بعيدة عنه فهي لم تفارق خياله لحظة حتى أنه أتى لها بكل ما تحتويه الحقيبة وطلب منها ألا تحزن منه أبدا فما شغله عنها إلا الضرورة القسوى.

منير: في حكمة بتقول وهذا أيضا سوف يمر، بمعنى إن كل حاجه بتعدي، الحلو بيعدي والوحش بيعدي، لو في يوم زعلتك افتكري الجملة دي كويس، افتكري إن كل حاجة بتعدي لا الفرح دايم ولا الحزن دايم.

شعرت نادية براحة فعلا فكان للجملة وقع قوي في روحها وفي نفسها والحقيقة كان لكل ما يقوله منير وقع قوي في روحها، قضيا الليلة سويا وظلت هي طوال الليلة تستيقظ من نومها فقد علقت الحكمة التي قالها لها في رأسها بأن السعادة لا تدوم فخافت ألا يدوم وجوده معها فوجوده يحمل كل معاني الفرح والسعادة في حياتها فأخافتها الجملة بشدة حتى أن هجرها النوم ثم قامت في الصباح لترتدي فستانها الجديد الذي اشتراه لها منير أو الذي اشترته لها فريدة، ارتدته بعد أن نزعت عنه الشارة الخاصة بالمحل الذي أشتروه منه وذهبت إلى فريدة التي عادت من الإسكندرية جلست هي وفريدة التي أبدت إعجابها الشديد بذوق منير في اختيار الفستان، وأخذت تشكو لها نادية كم كانت تفتقدها أثناء غياب منير وكم اشتاقت إليها فهي واثقة أنها لو كانت معها ما كان أصابها كل ما أصابها من حزن فكانت تتمنى لو كانت معها ولو ليوم واحد فقط من الأسبوع الذي سافره منير لربما كان عوضها ذلك عن وحدتها طوال الأسبوع وتأثرت

بشدة وهي تحدثها وكأنها حزنت على حالها حتى بدأت دموعها تنهمر منها لتحتضنها فريدة وتعتذر لها عن غيابها في تلك الفترة حتى يقاطعهم جرس التليفون وتضطر فريدة أن تجيب عليه فهو بالتأكيد حسن يود أن يطمئن عليها وتقوم نادية لتلقي بالمنديل بعد أن ذاب من كثرة دموعها لترى في سلة المهملات ما لم تتوقع أبدا أن تراه فقد وجدت ذات الشارة التي نزعتها من على فستانها وقد بدأت الحجرة بأكملها تدور بها ونبضات قلبها تزداد سرعة وشيء ما بداخلها ينكسر شيئا فشيء، شعرت وكأن هناك سكينا قد غرز بها، كان جسدها كله يرتجف لم تفهم معنى لما تراه رغم وضوح المعاني لكنها كانت قاسية ومؤلمة جدا بعيدة كل البعد عن تفكيرها فلم تقدر على استيعابها بتلك السهولة عادت مجددا إلى فريدة وهي لأول مرة تنظر لها نظرة مختلفة فلم تعلم من تلك التي أمامي، من تلك التي أجلس وأتحدث معها كانت تتمنى لو أن تفسر لها فريدة ما رأته فهي لا تقوى على تحمل أي فكرة أخرى، كانت تشعر أن قلبها على وشك أن يتوقف فقد جرح جرحا عميقا أعجزه عن العمل وما كانت تتمنى سوى أن تعيد لها فريدة الحياة في لحظات تمنت فيها أن تغادر هي تلك الحياة بما تحمله من قسوة وبشاعة.

نادية: ما تبقي تتفقي مع حسن لما يرجع نبقى نروح كلنا بورسعيد، ده منير بيقوللي أنها حلوة قوي، هو أنتي أخر مرة روحتي بورسعيد كان امتى؟

فريدة: لا من زمان جدا، وإحنا لسه في المدرسة كنت مع بابا وماما أنا حتى مش فكراها خالص بس يا ريت والله أول ما حسن يرجع هاقوله

ثم أخذت تسألها فريدة كيف تسير الأمور الآن مع منير أمازالت تشعر بجفائه وبعده عنها ثم بدأت تلقي باللوم عليها.

فريدة: بس بردو يا نادية أنتي غلطانة أنا كام مرة قولتلك لازم تهتمي بموضوع الخلفة ده مهما هو قالك إنه مش فارق معاه لازم هيجيله يوم وهيفرق بس استني أنا افتكرت قصة حلوة قوي هتفرق معاكي كتير في موضوع الحمل ومنير وأي حاجة مزعلاكي

وأخذت تحكي لها قصة الملك والخاتم وما أن وصلت إلى نهاية القصة حتى سألتها أتدرين ماذا كان مكتوب على الخاتم حتى سالت الدموع من عين نادية وكأنها تسيل من نهر جار لن يتوقف أبدا قائلة "وهذا أيضا سوف يمر" قالتها وكانت قد تأكدت أنها كانت مع منير في بورسعيد، قالتها في لحظه انكسر بها قلبها إلى الأبد، فتعجبت فريدة أنها كانت تعلم القصة مسبقا لكنها لم تقف كثيرا عند تلك النقطة فأخذت تبرهن لها صحة المقولة فضربت لها مثل بالأسبوع الذي مضى فكم مر عليها بصعوبة وهي وحيدة وكم كانت تتألم ولكن في النهاية لم يدم فقد مر وانتهي وسوف تنساه وكأنه لم يحدث من الأساس وطلبت منها أن تقيس عليه كل شيء في حياتها فكل صعب سوف يمر فلا شيء يدوم أبدا، لم تكن تسمعها نادية بل لم تكن تراها فكانت دموعها تنهمر بشدة حتى أن منعتها من الرؤية وكانت تظن فريدة أنها تبكي من بعد منير عنها، من حرمانها من الإنجاب ومن قسوة الأسبوع الذي مضى ولم تكن تعلم أنها بكت حينما رأت ما تحمله بداخلها لها، حينما رأت بشاعتها، وجهها الحقيقي فهو وجه مرعب دفعها إلى البكاء لحزنها أنها لم تره من قبل.

وكان يظن منير أن الدموع التي تنهمر من عينيها وهي جالسة بجواره أعلى السطح كانت لأنها تذكرت فريدة ومع أنها كانت بالفعل لأنها تذكرتها ولكن كانت لأنها قد تذكرت وجهها الذي رأته لأول مرة في ذلك اليوم، لأنها تذكرت كيف خانتها، كيف خذلتها، كيف اتفقوا سويا

ليغدروا بها وظل منير يحاول تهدئتها حتى قالت: ما تقلقش هبقى كويسة "وهذا أيضا سوف يمر" فاكر؟

كانت كلماتها كالكهرباء التي سارت في جسده بأكمله فكان قد نسى القصة وما أن ذكرته بها نادية حتى شعر وأن ما تنبأ به الدجال قد تحقق بالفعل وأن خوف فريدة كان في محله وكان أكيد أن ما هم مقدمين عليه سوف يكون أقسى وأبشع من كل ما مر.

كان يبحث رمزي عن كاميليا في كل مكان حتى وجدها أمامه وكانت عيناها مليئة بالعتاب فأسرع إليها ليعتذر لها بشدة وأخذ يوضح لها أن ما أخره عنها سوى أنه كان يحكي عنها لوالديه فهو يريد أن يعرفها بهم فاختفى كل العتاب الذي ملأ عينيها ليحل محله فرحة غامرة وتذكرت حينها حديث حسن لها أنه إذا أحبها فعلا لن يأخره عنها إلا سبب يخصها هي فكانت تريد أن تجده لتقول له إنه كان محقا، واتفق معها رمزي أنه سوف يعرفها على والديه الليلة بعد العرض. لكن لم تستطع سعادتها أن تهدأ من خوفها وقلقها فكانت تفكر كيف عليها أن تتعامل معهم، كيف تتصرف معهم، هل سيحبونها، هل سيقبلونها أم سيرفضونها ثم تذكرت كيف تعاملوا معهم في أول مرة جمعت بينهم مما ضاعف من توترها حتى أنها فكرت أن تقول له أن يؤجل تلك المقابلة لكن سرعان ما تراجعت فخشيت أن يسيء فهمها ويظن أنها ليست متأكدة من مشاعرها تجاهه أو أن يظن أن مشاعره قد سبقت مشاعرها فهي لم تصل لتلك النقطة بعد، ولم تكن تعلم لمن تذهب لتحكي له كل ما يحدث، أين ذهب جميل، أخذت تقول لنفسها فهي لم تره منذ أن كان واقفا أمام باب غرفتها ليلة أمس قبل العرض حتى أنه لم يجبها حينما نادته والحقيقة أنها لم تلحظ ذلك سوى في تلك اللحظة فقط، فذهبت لتبحث عنه ولكنها لم تجده في أي مكان ولا في

المسرح ولا أعلى السطح فقررت أن تذهب إلى غرفته فلم يبق سواها ولكن لماذا هو في غرفته حتى الآن.

كاميليا: أنا قالبة عليك الدنيا وأنت لسه هنا؟

لم تلاحظ كاميليا الأمل الذي كان قد مات في عينيه، الحزن العميق الذي سكنهم إلى الأبد ليسرق لمعتهم، لم تلاحظ سكونه ولا الجرح الذي أصابته به، لأول مرة لا تشعر به كاميليا، لا تشعر بألمه وحزنه فكان رمزي قد استحوذ على كل تفكيرها ولا يشغلها الآن سوى والديه وكيف عليها أن تتصرف معهم حتى أنها نست أن تسأله لماذا لم يفارق غرفته حتى الآن..

كاميليا: عايزة أحكيلك على موضوع مهم... رمزي

جميل: بتحبيه؟

لم تسأله عن سبب سؤاله وكيف وصل إلى علمه فأخذت تشرح له مدى عمق علاقتهم فبالرغم من قصر مدتها إلا أنها علاقة قوية وكأنها امتدت لسنوات فقد تعيش سنوات مع شخص لا تساوي في نظرك سوى أيام معدودة أو ربما لا تساوي شيئا من الأساس وعلى النقيض قد تعيش بضع أيام مع شخص لتساوي عمرك بأكمله ما سبق منه وما لم يأت بعد، وهذا هو حالها مع رمزي قالت إنها لا تعلم إذا كانت ما تشعر به تجاهه حبا أم شيئا آخر لكن الأكيد أنها تبدلت في ليلة وضحاها الأكيد أنه قد أدخل على قلبها سرورا يجعله يقفز فرحا في مكانه كلما رآه، الأكيد أنها تشعر بالأمان طالما تراه حتى وإن كان بعيدا عنها، وتشتاق إذا غاب عنها دقائق، الأكيد أن ذبولها لم يكن سببه قلة الطعام، أتصدق يا جميل؟ قالتها وهي تضحك وكأنها تسخر من حالها ومنه أنهم طوال تلك المدة لم يدركوا السبب الحقيقي وراء ذبولها

فأكملت أنه ربما كان السبب يعود إلى ذبول قلبها فما أن دق قلبها حتى ضخ الدماء في وجهها ليعيد له الحياة.

وكان يستمع إليها جميل وهو يبذل مجهودا هائلا ليجبر شفتيه أن تأخذ شكل ابتسامة على وجهه الحزين الذي ملأته التجاعيد التي أخفت ملامحه التي كانت تصرخ ألما أسفلها، وكانت تلك التجاعيد ظهرت واحدة تلو الأخرى في كل مرة كانت تبعد عنه كاميليا، مع كل كسرة قلب كانت تزداد التجاعيد واحدة، مع كل ألم اشتياق كانت تحفر على وجهه واحدة جديدة حتى أصبحوا يرتسمون فوق بعضهم تارة أسفل عينيه من كثرة انكماشهم بكاء وتارة فوق جبينه من كثرة الخذلان وتارة أخرى حول الشفاه من كثرة تصنع الابتسامة التي لم تكن ولو لمرة واحدة ابتسامة حقيقية منبعها القلب، ثم جاوب هو على سؤاله الذي كان قد طرحه في البداية قائلا: بتحبيه.

وكعادة جميل لم يكسر بخاطرها فأخذ يشجعها أن تقابل والديه، وأبدى أيضا إعجابه برمزي فمن الواضح أنه يحبها حقا ولا يتلاعب بها فقال لها ألا تتخلى عنه، ألا تتخلى يوما عن من أحبها، قال إن عليها أن تقابل والديه دون أي خوف، تقابلهم وهي كلها ثقة وعزة نفس كما كانت في أول مرة رأتهم فعليها أن تعلم أنها ثمينة جدا فهي أغلى بكثير من كل أموالهم التي أقضوا أعمارهم وهم يجمعونها.

وكانت لكلماته وقع هائل عليها فملأتها الثقة واطمئن قلبها وهدأت روحها وشعرت أنها على أكمل استعداد أن تقابل والديه فربما يكون اليوم هو أسعد أيام حياتها، ربما تكون الليلة هي الليلة التي يعلن فيها رمزي حبه لها أمام الجميع، يعلن أنها هي من ملكت قلبه وسكنته إلى الأبد فتحتضنها والدته ويبارك لها والده في لحظة غير محسوبة من ذلك الزمن.

رجعت نادية ومنير إلى غرفتهم وهو يثرثر ويثرثر عن أنه لن يتركها وسوف يظل بجوارها حتى يمرا بتلك الأزمة سويا وكانت تريد أن تصرخ بوجهه ليصمت ولا ينطق بكلمة أخرى فهي ما زالت لم تستكمل ما حدث.

استضافتهم نادية تلك المرة في منزلها بعد أن علمت كيف تآمروا عليها، كيف خذلوها وخدعوها فكانت تريد أن يجتمعوا جميعا مرة أخرى لتشاهدهم بعين مختلفة، تشاهد كيف يكذبون، كيف يمثلون، كيف يتحولون ويتلونون، كيف تطعنها أعز صديقاتها في وجهها وليس من ظهرها فهي في منزلها وأمام رؤى عينيها وكيف يسن لها زوجها السكين لتغرزه في قلبها، كانت فقط تريد أن تشاهد سنوات عمرها التي أضاعتها بينهما، تشاهد دناءتهم وحقارتهم. جلسوا هم الأربعة يتحدثون ويضحكون إلا نادية التي كانت تراقب في صمت، تراقب كل شيء، النظرات، الحركات والكلمات حتى استأذن حسن ليذهب إلى الحمام واستأذنت هي وراءه مباشرة لتعد لهم الشاي ثم خرجت لتقف خلف الباب فكانت تريد أن تسمعهم بنفسها وكأن شيئا بداخلها كان يتمنى أن تكون مخطئة، يتمنى أن تكون ظلمتهم حتى بدأت أن تسمع همساتهم التي كانت وكأنها همسات شيطانية صدرت من أفواه بشر.

منير: وحشتيني

فريدة: أنا جبتلك من الجاتوه اللي كنا أكلنا منه أول يوم لينا مع بعض

منير: يخرب عقلك أنتي لسه فاكرة

فريدة: طبعا فاكرة، يا ترى بقي أنت فاكر أنا اخترت أنهي نوع ولا لأ؟ بقولك أيه تعالى نلعب لعبة

منير: لعبة أيه يا مجنونة

فريدة: أنا هختار اللي أنت اخترتها يوميها وأنت تختار اللي أنا اخترتها، عارف لو مطلعتش فاكر أنا اخترت أنهي أنا هعمل فيك أيه؟

منير: أنت تعملي فيا اللي أنت عيزاه

ثم تسمع نادية صوت باب الحمام وقد فتحه حسن وكأنه صوت مضخم بجانب همسات العشاق التي كانت قد ملأت منزلها فذهبت مسرعة لتأتي بالشاي وبالجاتوه التي اختارته فريدة.

نادية: تحبي أنهي يا فريدة؟

فريدة: أنا ممكن أخد أول واحدة

وخانتها عيناها فابتسمت لمنير وهي تختارها وكانت أول مرة تلاحظ نادية كم كانت ساذجة، كم كانت مغفلة، أتبتسمين له وأنا جالسة وسطكم، أتلعبون سويا وتستخدمونني أداة في لعبتكم، ياه يا فريدة كيف لم أرك من قبل، كيف تحملين كل تلك الكراهية لي..

نادية: وأنت يا حسن

حسن: أي حاجة يا نادية مش هتفرق

ثم تنظر إلى منير فقد حان دوره في اللعبة، حان دور الاختبار، فنهض من مقعده ليذهب عند علبة الجاتوه فهو لا يريد أن يخسر في لعبته مع فريدة التي كانت تنظر له وعلى وجهها ابتسامة خبيثة كأنها تعد له الثواني فلم يتبق له سوى ثوان معدودة قبل أن تعلن خسارته وكان يعلم هو بقرب انتهاء وقته في اللعبة فتزداد حيرته وارتباكه

منير: أنا هاخد... دي ولا دي، دي ولا دي... خلاص هاخد دي

قالها في أخر ثانية قبل انتهاء الوقت ليأخذ نفسه ويستريح أخيرا وكانت تعلم نادية أنه فاز في لعبتهم فكانت أعلم الناس بصديقة عمرها

وكانت تعلم جيدا النوع الذي تحبه وتختاره دائما، يا خسارة يا منير، أتظن أنك هكذا كسبت؟ ألا تدري ما خسرته أمام ما كسبت؟ هل ما كسبت يساوي ما خسرته؟ ما أضعته؟.

وكانت تنظر له نادية وهم جالسين في غرفتهم في السفينة وكأنها تنتظر رده، هل يساوي؟ هل علاقتكما الملوثة بالغدر كانت تساوي كل ما نمر به الآن؟ كل ما خسرناه؟ هل كانت علاقتك بها تساوي هواني عليك إلى تلك الدرجة المخزية؟ هل كانت تساوي أن تضحي بي وبسنين عشناها معا؟ كان منير يحرك شفتيه ولا تسمع منه هي سوى: متخافيش... أنا معاكي يا نادية... بحبك.

وربما لم يوجد سبب يخيفها إلا وجوده هو معها حتى قاطعته لتوقفه عن كل العبث الذي ينطق به والذي سئمت سماعه..

نادية: لما بيفارقك شخص عزيز، العمر بيتقسم اتنين، قبل فراقه وبعد فراقه، أنت نفسك بتتقسم اتنين، قبل وبعد، لا العمر بيفضل هو العمر ولا أنت بتفضل نفس الشخص كل حاجة بتتغير واللي أقسى من التغيير نفسه هو سرعة التغيير، فسواء كنت هتقدر تستحمل التغيير ده أو لا، هتقدر تتأقلم معاه أو لا التغيير بيكون حصل خلاص، على فكرة مش الموت بس اللي بيفرق الناس، في ناس بتفارقنا وهم لسه عايشين معانا بيبقوا أكنهم ماتوا مع أنهم صاحين وموجدين حوالينا، بنفقدهم مع أنهم قدام عينينا وشايفنهم، بس فرق كبير بين الاتنين اللي مشي من الدنيا متقدرش تلومه أو تزعل منه لأنه مكنش قراره ولا باختياره يمكن لو كان قراره بأيده مكنش أبدا ساب الناس اللي بيحبوه، كان نفسه يعيش ويكمل معاهم، أما اللي فارقنا وهو لسه معانا فده اللي باع وخان كان قدامه يكمل ويعيش مع اللي بيحبوه بس هو اللي اختار يفارق

منير: أنا مش فاهمك يا نادية

نادية: عارفة، أصبر وهيجي يوم وتفهمني

***

كانت كاميليا تستعد للعرض أو بمعنى أدق تستعد للمقابلة فكانت تضع المكياج وتمشط شعرها وتبذل مجهودا هائلا أمام مرآتها الصغيرة لتظهر في أحسن مظهر أمام والدي رمزي ولم تكن تبالي شيئا للعرض فقد أسقطته من حساباتها، فكانت حياتها كلها الآن تدور حول شيء واحد فقط... رمزي، الذي كان وصل هو ووالداه إلى المطعم وكان هو شديد التوتر حتى أن توتره كاد أن يفوق توتر كاميليا فهو أعلم الناس بوالديه حتى أن في لحظة ندم أنه وافق على أن تتم المقابلة الآن ففي لحظة شك أنهم قد نصبوا لها فخا ليوقعوها فيه، تملكته تلك الفكرة وهو يراها ترقص أمامه على المسرح فأخذ يحاول أن يفكر سريعا في أي عذر يؤجل به المقابلة لكن انتهي العرض قبل أن ينتهي تفكيره إلى شيء، نزلت كاميليا من على المسرح وهي تغلق كفيها الصغيرين على بعض وكأنها تخبئ شيئا ما بداخلهم كيفما تفعل دائما عندما تشعر برهبة شديدة وكانت تنظر له في انتظار إشارة منه أن تذهب إليهم فتوجه هو إليها سريعا ليصطحبها معه إلى والديه وكان كل ما يفكر به هو أن يجلسوا أقصر فترة ممكنة وألا يخوضوا في أحاديث طويلة ثم يأخذها ويستأذن منهم فكلما طالت الأحاديث كلما انكشفت الأسرار وكثرت الأخطاء ومعها زلات اللسان وكلما تبعها كثرة الانتقادات والاعتراضات. دخلت كاميليا عليهم وهي تبتسم ابتسامة طفلة خجولة تملأها البراءة والسذاجة فكانت من النقاء والشفافية أنها لا تستطيع أن تفرق بين البشر، لا تستطيع أن تقرأ في أعينهم كم هم كارهين لها، غير مرحبين بها ويودون التخلص منها في أسرع وقت ممكن رغم

نظراتهم المرحبة جدا بها فاستقبلوها استقبالا حافلا أسعدها بشدة وكانت تنظر لرمزي والسعادة تغمرها وكأنها تقول له أرأيت، لقد نجحنا ومن أول دقيقة دون بذل أي مجهود وما كان من استقبالهم الحافل إلا ليزيد من قلق رمزي فتيقن أنهم يحاولون أن يستقطبوها لتقع هي في الفخ بنفسها دون تدخل من أحد ثم سرعان ما طلب توفيق أن ينزل لها طبق عشاء فاخر به جميع أنواع الطعام المتاح اليوم وسألها إن كانت تفضل أصنافا معينة والحقيقة أنها من شدة الألفة والمحبة التي شعرت أنها تحيط بها فكرت لوهلة أن تقول له أصنافها المفضلة ولكن منعها خجلها فتراجعت في آخر لحظة وتركت له مهمة الاختيار فمن الواضح أنه قد أحبها بشدة فهو يعاملها بحنية الأب فبالتأكيد سوف يختار لها أفخم الأصناف وكانت تسرق النظرات إلى رمزي وابتسامتها تزداد شيئا فشيء وقلبها ينبض بقوة، ينبض بحب رمزي وبحب والده فشعرت وكأنها وجدت أبا يحنو عليها، يخاف عليها ويحميها، كانت تتملكها رغبة ملحة بأن تقوم وتحتضنه لكنها وعدت نفسها أن في أخر المقابلة سوف تحتضنه وبالتأكيد سيفرح هو بذلك حتى تصير تلك هي عادتهم في كل مرة يتقابلون من الآن وصاعدا. ثم تتدخل رجاء لتوجه لها أول صفعة لتفيقها من الأوهام التي تملكتها فأشارت إلى دخول القبطان وخوفها من أن يسبب ذلك لكاميليا مشاكل في عملها فالمفترض أن العاملين على السفينة لا يأكلون في المطعم مع الركاب ليتدخل توفيق سريعا متسائلا كيف لها أن تطرح مثل ذلك الاقتراح فلا يستطيع أحد أن يقترب منها أو يوجه لها أي اعتراضات طالما هي برفقتهم وبالرغم من دفاع توفيق عنها ونهره لرجاء إلا أن كلماتها كانت قد أفلحت أن تصيبها بجرح عميق فكانت تذكرها بالمسافة الكبيرة بينهم، كانت تذكرها بمكانتها الحقيقية، كانت وكأنها تقول لها لست أنا الوحيدة التي ترى أن مكانك ليس هنا بل حتى القائمين على عملك،

من أتوا بك من الأساس قد منعوا عليكِ التواجد معنا ففي عرفنا الذي كبرنا عليه وفي قانون عملك وفي قانون الحياة نحن لا يجمعنا سويا مكان واحد، نحن لا نتشارك الطعام سويا ولا نتشارك الأحاديث سويا ولا نتشارك شيئا على الإطلاق فما بالك بابني.. ثم أخذ يسألها توفيق عن حياة البحر فهي تقضي أغلب وقتها فيه فقال لها إنه يظن أن الشخص يكتسب الكثير من الصفات من البيئة المحيطة به فيصبح بينهم الكثير من الصفات المشتركة فأخذ يشرح لها أن مثلا البدو بالتأكيد يكتسبون الكثير من حياة الصحراء فيكتسبون الصلابة، القوة والصبر فسألها ماذا اكتسبت من الحياة في البحر فهي نادرا ما تكون على الأرض فكيف أثر ذلك عليها وعندما لم تستطع كاميليا الرد فهي لم تفهم السؤال من الأساس رد هو مكانها فقال أراكِ ترقصين بانسيابية شديدة كانسيابية الأمواج، تطلي علينا كل ليلة كما يطل القمر شيئا فشيء حتى نراه قريب جدا عند اكتماله كما أنتِ قريبة منا الآن ومن يعتاد حياة البحر يعتاد البعد والهجر فهو دائما بعيد لا يعلم أحد مكانه سوى أنه في نقطة ما في وسط البحار، يعتاد عدم الاستقرار فلا أرض له ولا وطن فقد استبدل الأرض بالبحر وتاه وطنه بين رحلاته فيفتقد معاني كثيرة ربما كان يؤرقه في البداية فقدانها ثم مع الوقت يعتاد عليها حتى تصبح لا قيمة لها في عينه ثم يتحول إلى نقطة أخرى وهي أن يلفظها جملة وتفصيلا فقد اعتاد البعد، اعتاد الهجر، لا يعلم معنى لأرض أو وطن أو أهل ولا يستطيع أن يتكيف مع تلك المعاني مجددا، شعرت كاميليا لأول مرة بخبث توفيق رأت عيناه وهي تتحول لعين تمساح يحاول خداعها ليحكم قبضته عليها فما هو أب ولا هي ابنة ولن يحتضنها إلا ليفتك بها، شعرت بخوف شديد منه فإذا كنتم لا تريدونني فلم دعوتموني من الأساس؟ كان هذا كل ما تفكر به كاميليا فأنا لست بلا أهل أو أرض أو

وطن، أنا لم أعتاد البعد والهجر بل أن البعد يعذبني في كل ليلة، اشتاق لأهلي ولأرضي ولوطني لدرجات يصعب عليكم فهمها وما دفعني إلى ذلك إلا الحاجة الشديدة إنما أنتم من فقدتم معاني كثيرة، فقدتم معاني الشهامة والمروءة عندما دعوتموني واستدرجتموني لتهينوني وتدعون ما ليس في وتسخرون مني، وكان قد نزل أمامها طبق العشاء المليء بالأصناف التي طالما أحبتها وطالما سرقتها، وضعت أمامها تلك المرة دون أن تبذل أي مجهود من جانبها، دون اختلاس ودون ركض ولكن كان قد ذهب عن الطعام جماله فلم تستطع حتى أن تشم رائحته الشهية رغم قربه منها فلم تشعر بأي رغبة في أن تأكل. حاول رمزي أن يتدخل بعد أن شعر بسوء الموقف ليشرح لوالديه كم تحب كاميليا عملها وكم هي مجتهدة ومبدعة في مجالها ليقاطعه توفيق قائلا إن الفن بالتأكيد شيء عظيم ولكنه لا يرى أن ما يقدم هنا على السفينة يرتقي لمستوى الفن فهي مجرد فقرة تسلية للمسافرين أثناء تناول عشائهم إنما يوجد أنواع أخرى من الفنون أرقى من ذلك بكثير ثم قال إن لديه أصدقاء ومعارف في دار الأوبرا ومسارح كبيرة فعرض عليها أن يتوسط لها عند أحدهم إذا كانت تحب أن تدخل مجال الفن حقا ولكن لم تعط لها رجاء فرصة أن ترد فتدخلت سريعا لتقول إن تلك أماكن كبيرة وعريقة لا يقبلون بأي أحد إنما لابد من وجود دراسات وشهادات وأضافت أن كاميليا كل خبرتها تنحصر على مسرح السفينة مع ذلك المدرب، صمتت كاميليا فلم تكن تريد أن تتحدث بعد الآن بل كانت تريد أن تذهب، كانت تريد أن تبكي لكنها كانت ترجو دموعها ألا تخونها وتسيل أمامهم، فكفى إهانة، كفى تجريح فهم يتسلون بها يبدأ توفيق وتستكمل رجاء فتحولت هي إلى طبق الحلوى على المائدة الذي يتهافتون عليه ليأخذ كل منهم قطعة، ولم يكتفي توفيق بكل ما سبق فأخذ يستكمل حديثه بسؤالها عن فرنسا فسألها

أي أماكن تزور في فرنسا عندما ترسو السفينة هناك وبمناسبة الحديث عن الفنون سألها إن كانت حضرت المولان روج فهو وطيد الصلة بعملها ويجسد المعنى الحقيقي للفن ولم ينتظر ردها فأخذ يشرح لها ما هو المولان روج، تاريخه، ما يقدمه وكم هو مهر فهو مثال للفن في أبهي صوره وكأنه افترض جهلها بالمولان روج فأخذ يبسط لها الأمر مما زاد من إهانتها لتقاطعه هي لأول مرة لتقول له إن الذهاب إلى المولان روج حلم كل من يعمل بالفن أو حتى خارجه إنما هي لم يكن حلمها الذهاب إليه إنما حلمها هو أن ترقص يوما على ذلك المسرح ليشاهدها ويحيها العالم بأكمله وبالرغم من أنها لا تستطيع تحمل تكلفة دخوله الآن ولكن لا يزعجها ذلك لأن حلمها يفوق سعر تذكرته بكثير فهي على يقين أن يوما ما سوف تكون هي البطلة على مسرحه ويتهافت عليها الناس من جميع أنحاء العالم ليشاهدوا العرض الذي سوف يحكي عنه ويسجل في تاريخ المولان روج ثم أضافت أن أحلامها ثمينة لا تقدر بثمن فكل ما له قيمة حقيقية في الحياة لا يكون له ثمن ليعارضها توفيق قائلا إن ما خلق شيء على وجه الأرض إلا وله ثمن فتستكمل كاميليا أنه على العكس فكلما زادت قيمة الشيء كلما فقد ثمنه في لحظة كان يتمنى فيها من يفقده لو كان له ثمن فكان فعل أي شيء ليدفعه فالصحة مثلا لا تقدر بثمن وإن فقدت في يوم لن تعود مهما كان غنى صاحبها، النظرة في عين من تحب لا تقدر بثمن فإن غاب عنك لن تعوضه أموال الدنيا، هناك لحظات نعيشها لا تقدر بثمن فنتمنى لو تعود بنا مجددا ولكنها تكون قد انتهت نهاية أبدية، الوفاء لا يقدر بثمن فلا يمكن شراءه، الحب، التضحية والصدق كلها معان لا تقدر بثمن وإن لم تكن أصيلة في صاحبها فلا يستطيع أبدا شراءها، ليقفز توفيق على كلامها قائلا: هايلة يا كاميليا، أقنعتيني،

عارفة أيه كمان اللي ميتقدرش بتمن؟ الابن وعشان كده أنا هفضل أحافظ على ابني لآخر يوم في حياتي.

وما كان ينقصه سوى أن يكمل جملته ليقول إني أحافظ عليه منك فما أنتِ إلا شر أصابه وأذى لحق به وعلينا أن نتخلص منك في أسرع وقت، فليس فقط المعاني الجليلة هي التي لا تقدر بثمن إنما الشرور أيضا لا تقدر بثمن فلو كنا نعلم لها ثمن لدفعناه لنتخلص منها وندفعها عنا ولكن للأسف هي الأخرى لا تقدر بثمن، وما زاد من سوء الموقف كان دخول وفاء إلى المطعم ومعها ليلى التي ما رأت فرصة أنسب لتنقض على فريستها أكثر من تلك، طلبت منهم رجاء أن ينضموا إليهم وكان رمزي يستشيط غضبا فما كان ينقصهم سوى وفاء وابنتها وأبدت ليلى حزنها الشديد أنها لم تشاهد العرض الليلة فكم تحب الرقص والأغاني ولكن كان والدها دائما يقول إن بنات العائلة لا يدخلون في مثل تلك المجالات فهم لهم شأن أعلى بكثير ثم توجه حديثها إلى كاميليا قائلة إنها بالطبع لا تقتنع بكلامه على الإطلاق فهي تؤمن بالفن والرقص والغناء حتى أنها طلبت منها أن تعلمها الرقص في مقابل المبلغ المالي الذي تحدده هي ليتدخل رمزي ليدفع عنها الإهانة قائلا إنها لا تمتلك وقت لتضيعه فيما لا يفيدها وأنها حتى وأن أرادت أن تفعل ذلك فسوف تفعله تكرما وتبسطا منها وليس لأنها تنتظر أي مقابل سواء كان ماديا أو غيره.

ثم تدخلت وفاء لتسأل كاميليا عن ما الذي دفعها للعمل وهي ما زالت في ذلك العمر الصغير، فكان عليها أن تستمتع بشبابها قبل أي شيء فتلك الأيام لن تعوض وسوف تتذكر ذلك عندما تصل لعمرهم ثم ضربت لها المثل بليلى فهي تدرس الحقوق، تذاكر وتجتهد طوال السنة الدراسية ثم يعوضها عن ذلك والدها في أشهر الصيف فيشتري لها كل ما تتمناه أي فتاة بعمرها ويسفرها بلاد العالم ويصطحبها كل

يوم في مطعم مختلف حتى قالت له إنه سوف يسبب لها مشكلة كبيرة فلن يقدر على ذلك من سوف يأتي ليتزوجها لتتدخل رجاء سريعا وكأن الفرصة قد جاءت لها على طبق من ذهب لتقول إنه ليس بكثير عليها ثم تنظر إلى رمزي لتستكمل ولا بكثير على من سيتزوجها، تنظر لها كاميليا وهي تود أن تسألها لماذا كل تلك القسوة؟ لماذا استبحتموني إلى هذا الحد؟ أتظنون أنني بلا شعور، بلا قلب ينزف وعين تدمع؟ أم أنكم فقط لا تبالون لمشاعري فلا قيمة لها في أعينكم؟ ظلوا جميعهم يتحدثون وتعلوا ضحكاتهم وتشعر هي وكأنهم يضحكون عليها فلا يستطيعون أن ينتظروا حتى تغادرهم وتنظر لرمزي وهي تحمل له عتابا قاسيا ليس لأنه دعاها إلى العشاء ولكن لأنه تقرب منها من البداية فأنت مثلك مثل والديك هم من شكلوك، هم من ربوك ومهما كنت تظن أنك تختلف عنهم فأنت نسخة مصغرة منهم وإذا استمرت تلك العلاقة فسيأتي عليك اليوم الذي تنظر لي فيه نفس نظرة والديك، سوف تعاملني كيفما عاملوني وتهينني ذات الإهانة بل ربما أكثر، استأذنت كاميليا لتغادر الجلسة لتقرأ في أعينهم كم رحبوا بالفكرة، كم استراحوا كلهم أنها أخيرا نطقت أنها سوف تغادر فأخيرا سوف يجلسون على راحتهم ويتحدثون على راحتهم دون أن يوجد وسطهم من هو غريب عنهم، ليس من دنياهم ويعكر صفو جلستهم. أسرع رمزي خلفها ليوضح لها أن ما كان عليها أن تغادر وأن كان هناك من أصابه ضيق من وجودها فكان عليه هو أن يغادر لترد كاميليا أن ذلك المطعم في الأساس هو مكان مخصص لهم هم الركاب فذلك مكانهم هم وليس مكانها هي، فهي من كان عليها أن تغادر ثم أضافت أنه حتى وأن كان في الأصل مكانها هي فكانت سوف تتركه أيضا فهي لا تريد أن يجمعها بهم مكان واحد، فأنكم جميعا تشبهون بعض، تليقون على بعض إنما أنا لا، فأنا اختلف عنكم كثيرا ولا أود أن أحسب

واحدة منكم ولا أود في يوم أن أشبهكم في شيء. لم يكمل رمزي العشاء وعاد إلى غرفته في انتظار وصول والديه وما أن سمع أصوات أقدامهم تسير في الممر دخولا إلى غرفتهم حتى أسرع بالخروج إليهم وكانت نظرة عينيه مليئة بالغضب فكانوا وكأنهم جمرتان من النار، أشار له توفيق برأسه أن يدخل معهم إلى غرفتهم وكانوا هم في حالة شديدة من البرود فكان بالنسبة لهم الموضوع بالتأكيد انتهي ولن تحاول تلك الفتاة التقرب منه مجددا وأما عن الغضب الذي يشعل عينيه فيومان وسوف ينطفئ ويهدأ وينسى كل ما حدث، كان يتحدث رمزي بنبرة حادة مليئة بالتحدي وهو ينظر لوالده في عينيه ليبدد له كل الأفكار التي ملأ بها رأسه ليقول له إن كنت تظن أنك بما فعلت الليلة سوف تثنيني عن قراري في اختيار من أحببت فأنت مخطئ كما لم تخطئ من قبل فتمسكي بكاميليا بعد العشاء قد تضاعف عن قدر تمسكي بها قبله فأنت ما فعلت سوى أن علقتني بها أكثر ورفعت من شأنها في عيني أكثر ودفعتني إلى حسم قراري وهو أني لن أتخلى عنها أبدا فإن كنت تظن أني هنا لألومك أو أعاتبك فبالعكس لقد أتيت لأشكرك فأنت من سهلت علي حسم القرار ثم غادر الغرفة بعد أن أخذ معه كل البرود الذي كان يتملكهم، كانت تشعر رجاء بغيظ شديد حتى أنها كانت تفكر أن تذهب للقبطان وتقدم بها شكوى مما زاد من غضب توفيق فما هي إلا خطوة ستزيد الأمور تعقيدا فالأمر أصعب مما تصور ولن ينتهي بتلك البساطة.

***

صعد رمزي إلى أعلى السطح متمنيا أن يجد كاميليا ولكنه لم يجدها، كان يود أن يعتذر لها عن كل ما سببه لها من ألم فكان أكيد أنها حزينة ومكسورة الخاطر، لم يكن يريد أن يتركها تقضي ليلتها وحيدة لا يصاحبها إلا حزنها، كان يريد أن يقبل يدها ورأسها، يطمئنها

أنه لن يتخلى عنها أبدا، يخبرها كم علت وكبرت في نظره وظل منتظرا أعلى السطح متمنيا أن تظهر في أي لحظة حتى ظهرت شمس النهار ولم تظهر هي، فكانت تقوقعت على نفسها، احتضنت نفسها بعد أن شعرت كم هي وحيدة وسط واقع مرير لا يرحم أحدا وأن عليها أن تعتاد وحدتها وأن تتعلم كيف تأنس نفسها فلن يكون هناك من يأنسها.

دخلت عليها سهي حجرتها لتستعير منها بعض الملابس والحلي لتستكمل خطتها في التقرب من حسن، فتلك هي فرصة العمر بالنسبة لها ولا يتبقى سوى بضعة أيام على السفينة فكان عليها أن تكثف من مجهوداتها قبل فوات الأوان. ذهبت إلى كاميليا التي كانت جالسة على سريرها، ذراعيها منطويتين حول ساقيها وتميل برأسها على ركبها، لم تسمع من سهي سوى أنها تريد أن تستعير منها فستانا وربما بعض الحلي لتتزين بها فقد سئمت جميع ملابسها، وفي الواقع جميع ملابسها ما كانوا إلا فستانين وكانت تريد أن تظهر بفستان جديد، لون مختلف وهيئة مختلفة ربما يظهرها ذلك أمام حسن، ولو كانت كاميليا في ظرف آخر لكانت رفضت طلبها فهي الأخرى لا تمتلك سوى فستانين أو كانت على الأقل حاولت استدراجها لمعرفة السبب الحقيقي وراء طلبها، ولكنها لم تكن تهتم أن تعرف أو تهتم بأن تأخذ الفستان أو لا أو حتى تعيده مجددا أو لا تعيده فلم يعد هناك قيمة لشيء بعينيها، وكانت تسيل دمعاتها لتجري على أنفها ثم تسقط لتفترش الأرض دمعة تلو الأخرى، واستغلت سهي أنها لم تسألها عن سبب طلبها ولم تعارضه فأخذت تفتش في دولابها بحثا عن حلي تليق بالفستان حتى وجدت خلخالا ذهبي اللون وضعته بجانب الفستان لترى إن كان سيتماشى معه وشعرت أنها صنعت التوليفة المناسبة فأخذتهم وركضت من الغرفة بعد أن أعطت كاميليا قبلة على رأسها التي لم ترفعها لسهي

منذ دخولها، خرجت لترتدي فستانها الجديد الذي زينته بخلخال على كعبها كان هو كل ما رآه حسن وهو يلتف على كعب من رأته وكأنه كان يقفز معها ليهربوا سويا منه.

***

انضم حسن إلى نادية ومنير أثناء تناولهم الإفطار في المطعم، وكان منير يكن له ذات المشاعر التي كان يشعر بها توفيق ورجاء تجاه كاميليا، فهو غير مرحب به، هو لا يريده معهم فبأي حق يفرض نفسه عليهم فمن كانت تجمع بينهم قد ماتت أو بمعنى أصح قتلها هو ثم سار يبكي غيابها وفقدانها، وكان يفكر في أنه لو كان فقط يستطيع أن يبوح بأنه هو من قتلها، هو من ألقى بها في الماء ولكن لا يمكنه البوح بذلك دون أن يحكي القصة بأكملها، فقبل أن يقول إنه هو من قتلها عليه أن يقول لماذا أقدم على تلك الخطوة، لماذا قتل زوجته التي ما أحب شخصا يوما كيفما أحبها، ولكن كان هذا هو المستحيل بعينه بالنسبة لمنير.

أما نادية فكانت تشعر بقرب شديد من حسن فبالرغم من صداقتهما التي جمعت بينهما طوال السنوات التي مضت إلا أن ما يربطهما الآن أعمق وأقوى بكثير، فيجمع بينهما سر هز حياتهما وكيانهما، يجمع بينهما ألم لا يشعر به سواهما وكأن علاقة نادية بفريدة انتقلت إلى حسن بعد موتها كما ينتقل الإرث، فكانوا يفهمان بعض من نظرات أعينهم، فهم الآن يمتلكان نفس النظرات بكل ما تحمله من ألم لذا لا يقرأها سواهما ويعذبهما نفس الجرح وتألمهم نفس الحرقة فيفهمون بعضا دون حاجة إلى الحديث فما عاد للكلمات قيمة، فكان البركان الثائر بداخل نادية هو ذاته البركان الثائر

بداخل حسن كان يحرقهما أحياء ويعذبهما حتى تشتعل نيرانه في أعينهما ولكن لا يراها سواهما فقط.

نادية: منير بيخوني

كلمتان كانوا من القوة أن يعصفوا بحياتهم هم الأربعة إلى الأبد، أن يشعلوا النيران في حياتهم، كلمتان أنهوا حياة فريدة، ألقوا بها في ظلمات البحار، دمروا منير وقبل كل ذلك سرقوا الروح من نادية وحسن، هما كلمتان قالتهم نادية لحسن بعد أن علمت بعلاقة منير وفريدة حيث ذهبت إليه في عيادته لتخبره أنها على يقين أن منير يخونها، أن هناك علاقة تجمعه بامرأة أخرى، وكان يحاول حسن تهدئتها فربما هي مجرد شكوك لا أساس لها.

نادية: بيقولوا أن الواحد قبل ما بيموت بيتفرج على حياته كلها في لحظات، الغريبة أني من ساعتها وأنا محبوسة في اللحظات دي، بتفرج على حياتي، سنيني اللي ضاعت، عمري اللي اتسرق وحب حياتي اللي طلع وهم، كدبة ضيعت عليها سنين عمري كله.. تخيل أن ممكن في لحظة واحدة حياتك كلها تتقلب، الدنيا تتشقلب من حواليك فتتحول لشخص تاني أنت متعرفوش، لحظة بتحس فيها أن الألم وصل لدرجة فوق قوة احتمالك، تحس إن كل اللي بيحصل حواليك بقى فوق قدرة استيعابك، لحظة بتموت فيها مش بس مرة واحدة، إنما بتموت ساعتها وبتموت تاني كل ما تفتكرها فتلعن اللحظة دي، لحظة كشف الحقيقة، لحظة مفيهاش رحمة هتتمنى لو تمحيها من ذاكرتك، هتتمنى لو مكنتش عشتها بس للأسف عيشتها بكل قسوتها ومن اللحظة دي مفيش حاجة بترجع زي الأول وبعد ما بيعدي وقت طويل هتكتشف أنك عمرك ما هتتخطى اللحظة دي، هتكتشف إنك من ساعتها وأنت لسه واقف هناك مرجعتش وعمرك ما هترجع.

كان حديث نادية يشكل صدمة كبيرة لحسن، فكم الوجع في حديثها لا يرجح أنها مجرد شكوك بل هي واثقة تماما مما تقول فجرحها عميق وحقيقي جدا وليس مبني على شكوك، فكانت جراحها هي من تتحدث، سنواتها التي ضاعت منها عادت الآن لتتحدث بدلا منها ثم فاجأته بطلب غريب جدا مما زاد من صدمته بشدة، طلبت منه أن يراقب لها منير وأن يساعدها في معرفة من هي التي استباحت أن تسرق منها عمرها وذلك ما رفضه حسن بشدة فمنير صديقه وهو لا يقدر على فعل ذلك ثم أنه لا يريد أن يتدخل بينهما وما زاد من ريبة الموقف بل ما جعل شعوره وتفكيره يتخطى نادية ومنير وكأن نادية قررت أن تحكم بقبضتها على قلبه لتعتصره لتدفعه أن يقبل بطلبها هو عندما سألها إن كانت فريدة على علم بما تحكي له الآن لتجيب بأنها لا تعلم شيئا ولا عليها أن تعلم شيئا، فتعجب بشدة من ردها وكان يشعر بأنفاسه تضيق وهو يسلط نظرات عينه على شفتيها ليقرأ جيدا ما تحاول أن تقوله، فكيف لم تحكي لفريدة، كيف تطلبين مني ألا أحكي لها، فلا يوجد أسرار بينكما أنتما تشاركان بعضكما كل شيء من أكبر الأمور إلى أتفها، لماذا تغير ذلك الآن في نفس الوقت الذي علمتِ به بخيانة منير، لتضحك نادية ساخرة وتقول إنها هكذا كانت تظن أيضا، وتنصرف بعد أن ألقت بكلماتها التي كانت أشبه برصاص يخترق صدره وكان يود لو أن ينهض ويحكم بقبضته على رقبتها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة، فإلى ماذا تلمحين، وكيف تتحدثين هكذا عن فريدة، صديقة عمرك، من الواضح أن خيانة منير لكِ قد دفعتك إلى الجنون، أفقدتك عقلك فجعلتك تشكين بكل من حولك دون تمييز، ولكن إن كان منير خائنا ففريدة لا. ولكن لم يخيب ذكاء نادية فوجد حسن نفسه ودون أن يشعر يطلب منير هاتفيا ليعرف أين هو وماذا يفعل، وجد نفسه يراقب خطواته وكان يقول لذاته إنه يفعل ذلك ليثبت لها

خطأها، ليكشف لها كم ظلمت صديقتها وكم أخطأت في حقها وليرجع إلى فريدة ليخبرها كيف تراها من كانت تظن أنها صديقتها، ليخبرها أن عليهما أن يبتعدا فمن الواضح أنهما قد اقتربا من بعض أكثر من اللازم.

كانت نادية تتناول الطعام دون أن توجه الحديث إلى حسن فهي تعلم أن رأسه مشغول بالمقابلة التي جمعت بينهما في عيادته فكانت هي ما تشغل رأسها أيضا، فما يشغل بالهم الآن إلا ذات الشيء وأرادت أن تتركه يتذكر كيفما شاء فربما يجد ما يهون عليه آلامه.

***

قررت كاميليا أخيرا الخروج من غرفتها فكان هناك حديث تود أن تخاطب به السماء، عتاب لم تستطع كتمانه أكثر من ذلك لكن لم تسمح لها نافذة حجرتها الصغيرة أن تنقل رسالتها فصعدت أعلى السطح لترفع رأسها إلى السماء وعيناها تملأها التساؤلات التي أرهقتها فكان عليها أن تزيحها من على صدرها وتبوح بها ربما تجد إجابة تريحها، نظرت للسماء وهي تحمل لها لوما شديدا وعتابا قاسيا حتى أنها ظلت تطرح أسئلتها ودموعها تنهمر سريعا وراء بعضهم وكأنهم يتسابقون وتلهث لتخطف الأنفاس فكادت تساؤلاتها أن تخنقها، كانت تشعر وكأنها تقف أمام منصة قضاء، أمام من سوف يصدرون حكمهم بعد سماع كلماتها فأرادت قبل أي شيء أن تعرفهم من تكون، فأردفت أنا كاميليا، أنا ما أذيت بحياتي كائنا قط، إنسان كان أو حيوان، لم أهين أحدا، دائما أبذل أقصى ما في وسعي لإسعاد من حولي فلماذا لفظتني الدنيا؟ لماذا أواجه كل تلك القسوة؟ لا أدري لماذا لم تستجب دعواتي، لماذا لم تسمع آهاتي؟ لماذا بكيت ليال طويلة حتى جفت الدموع في عيني فعجزت حتى عن البكاء؟ لماذا خلقت أنا أنا؟

لماذا لم أخلق في زمن آخر، في عالم آخر؟ لماذا لم أخلق ابنة لأهل أغنياء يركض وراءهم توفيق ورجاء طمعا في موافقتهم ليزوجوها ابنهم؟ لماذا أنا وحيدة، تعيسة ومجروحة إلى تلك الدرجة؟ لماذا سكت عن قتل فريدة ولم أكتفي بصمتي بل أني جلست مع قاتلها لأشكي له همي وأخذ منه النصيحة، لماذا لا أبادل جميل نفس مشاعره؟ ولماذا قابلت رمزي وخلق بيننا هذا الشعور طالما مآله إلى الموت؟

لتنتفض بقوة بعد أن أمسك رمزي بيدها الصغيرة والتي كانت ترتجف بشدة لتجد الدموع قد تجمعت في عينيه وكأنه كان يستمع لحديثها فاحتضنها بقوة شديدة وكأنه يحاول أن تذوب بداخله، أن يلتحما سويا ليحميها من أي شيء قد يؤذيها لتضع هي يدها على صدره لتستخدمها كحاجز بينها وبينه فمن المستحيل أن تذوب بداخله فهم من عالمين مختلفين ترفض قوانين الطبيعة التحامهم، فكم كانت تتمنى لو أن تذوب بداخله في تلك اللحظة إلا أنها قد أيقنت أن لا مكان لها بين ذراعيه الدافئتين فكانا من الغباء أن يخدعا أنفسهم منذ البداية وبوهما حالهم أن علاقتهم قد تستمر فإنها علاقة ما نتجت إلا عن سذاجة ورعونة ولو كانا فقط فكرا للحظات لكانا أعفيا أنفسهم من جراح سوف ترافقهما سنوات عمرهما، وعارضها رمزي بشدة ولكنه كان يقدر كم هي مجروحة ومتألمة فأخذ يعدها أنه لن يتخلى عنها أبدا فكما قالت هي البارحة أنه كلما علت قيمة الشيء كلما فقد ثمنه، فأنت لا تقدرين بثمن يا كاميليا، أموال العالم لا تستطيع أن تعوضك وأنا لن أقابل مثلك مرة أخرى في الحياة ولذلك أنا لن أتنازل عنك أبدا فالغباء الحقيقي هو أن أترك ما هو بين يدي الآن، الغباء بعينه هو أن أبعد عنك، فكما كنتِ تقولين الحب، التضحية والصدق معان كبيرة لا تقدر بثمن فكيف أكون من الغباء أن أتخلى عنك وأنت الحب والتضحية والصدق .

وبالرغم من جمال كلمات رمزي إلا أنه فشل في لئم جراحها ورغم شعورها بحقيقة مشاعره وصدق لسانه إلا أنها كانت على يقين أن والديه لن يقبلا بها مهما كلفهما ذلك من أمر.

***

صعد حسن مع نادية ومنير أعلى السطح ليستكملا جلستهما والحقيقة أن حسن هو من كان يشعر أن منير غير مرحب به، أنه فرض نفسه عليهما وأن من كانت تجمعهما سويا ماتت فلماذا أنت ما زلت جالسا معي وكان ينظر له وهو يتذكر عندما اتصل به ليسأله أين هو وإن كان وراءه أمر ما الليلة ليجيب أنه شديد الانشغال في العمل فالمدير الجديد يحاول فرض سيطرته على الموظفين واعتذر منه أنه لن يستطيع أن يقابله الليلة فربما غدا يكون أفضل وظل حسن يمعن النظر في عين منير وهم جالسين أعلى السطح حتى أصابه بتوتر شديد لماذا ينظر لي هكذا؟ إذا كان هناك ما يود أن يقوله فليقوله ويريحنا، حتما أصابه الجنون فهو لم يعد يعي لتصرفاته أو يتحكم في كلامه حتى نظراته لا يستطيع السيطرة عليها، ثم يتصل بفريدة ليدعوها إلى العشاء لتقول إنها لن تفوت تلك الفرصة لشراء فستان جديد تحضر به عشاءهم طلبت منه أن يعطيها ساعة واحدة فقط لتشتري فستانا يليق بسهرتهم سويا ولا يعلم لماذا غادر العيادة واتجه ليقف أسفل منزلهما، كانت قدمه تسير وحدها، قلبه يرتجف بدلا من أن ينبض، كان لا يفكر لم يكن قراره أن يراقبها، لم يفكر أبدا أن يراقبها حتى نادية لم تطلب منه ذلك بل طلبت أن يراقب منير فلماذا يراقب هو فريدة، لم يكن يعلم لكنه وجد نفسه أسفل المنزل منتظرا خروجها يسير وراءها حتى وصلت عند منزل قديم هو لا يعرفه ولكنه كئيب معتم لا تكاد تعرف له لون، هل هو رمادي أم اكتسب ذلك اللون الداكن مع مرور الزمن أو ربما أسود مما يحمله بداخله، ماذا تفعلين هنا يا

فريدة؟ ما هذا المكان المقبض؟ لماذا أتيت بنا إلى هنا؟ ثم ها هو منير يركن سيارته ويتجه إلى المنزل وكانت الشمس سلطت ضوءها على وجهه وكأنها تكشف لحسن لأول مرة لون بشرته الداكن الذي يقترب كثيرا من لون المنزل وكأنه هو أيضا أسود مما يحمله بداخله فكان يشبه منزله الكئيب المقبض كثيرا إلا أنه ليس بمنزل أنه أقرب إلى المقبرة ففيه ماتت ودفنت أجمل المعاني، أجمل اللحظات وأجمل سنين العمر فيه قتل غدرا قلب كان ينبض بعشق امرأة، يتنفس هواها، فيه مات الشرف، ماتت العزة وماتت نادية قبلهم جميعا حتى بدأ يشعر حسن أن المنزل تخرج منه رائحة كريهة كرائحة الموتى ثم بدأ يجتاح جسده بأكمله تنميل شديد لماذا فريدة ومنير في نفس المكان؟ لماذا هو ليس في عمله كما قال؟ ولماذا لا تشتري هي فستانا لسهرتنا؟ لماذا لجأت لي نادية أنا بالذات؟ لماذا طلبت مني أن أراقبه؟ لماذا طلبت مني ألا أقول لفريدة؟ ولماذا أنا أراقب فريدة بدلا منه؟ ما الذي يحدث؟ ومع أن حسن كان يعي تماما ما يحدث بل أنه ربما كان قد أدرك ماذا يحدث منذ اللحظة التي ذهبت فيها نادية إليه إلا أنه لم يستطع الاعتراف بذلك فأخذ يسير ناحية نافذة معتمة بالضباب ليرى وجوههما الحقيقية وهي تلتصق ببعض، يسمع أنفاسهما وهي تتداخل، يرى نظراتهما التي كانا مازالا يسرقانها رغم علمهما أن لا أحد يراهما، يشعر بلمساتهما تحرقه، تحتد أشواقهما لتذبحه، يشهد هوانه عليها وهي ترسي بشفتيها عليه ليشعر بروحه تنجذب إلى أسفل حتى تصل إلى أصابع قدميه فظن أنه يعيش لحظة من لحظات الموت، لم يكن في الدنيا ولم يكن في الآخرة كان في نقطة ما في الوسط لا يعرف لها اسما فهي نقطة بين الحياة والممات إما تذهب وإما تعود وكم كان كارها أن يعود إنما بشاعة المنظر هي من أعادته كما كانت هي من ذهبت به فكانت من البشاعة والقسوة أن تميته وتحييه في ذات اللحظة من

شدة الألم فهو ألم قادر على أن ينهي حياتك من شدته ومن شدته أيضا تحيا من جديد ثم سمع صوت نادية يرن في أذنيه "تخيل أن ممكن في لحظة واحدة حياتك كلها تتقلب، الدنيا تتشقلب من حواليك فتتحول لشخص تاني أنت متعرفوش، لحظة بتحس فيها أن الألم وصل لدرجة فوق قوة احتمالك، تحس إن كل اللي بيحصل حواليك بقى فوق قدرة استيعابك، لحظة بتموت فيها مش بس مرة واحدة، إنما بتموت ساعتها وبتموت تاني كل ما تفتكرها فتلعن اللحظة دي، لحظة كشف الحقيقة، لحظة مفيهاش رحمة هتتمنى لو تمحيها من ذاكرتك، هتتمنى لو مكنتش عشتها بس للأسف عشتها بكل قسوتها ومن اللحظة دي مفيش حاجة بترجع زي الأول وبعد ما بيعدي وقت طويل هتكتشف أنك عمرك ما هتتخطى اللحظة دي، هتكتشف إنك من ساعتها وأنت لسه واقف هناك مرجعتش وعمرك ما هترجع"، ثم يشعر بأن روحه تنجذب إلى أسفل من جديد وهو جالس أعلى السطح ليشعر مرة أخرى بأنه في لحظة بين الموت والحياة ولا يفيق إلا على وجه سهي يقترب منه أكثر وأكثر ليزيد من ربكته أتلك هي الدنيا أم الآخرة؟ لم يكن يتذكرها من الأساس، من تلك؟ فأخذت تعرف نفسها أنها سهي من الفرقة الاستعراضية وقد تملكها شعور شديد باليأس والإحباط وهو لا يعلم بوجودها على السفينة أو بوجودها في الحياة رغم أنهما تحدثا مسبقا لكن لتلك الدرجة لم تترك به أي أثرا حتى أنها لم تكمل حديثها معه فما كان له من فائدة بعد الآن فاستدارت لتسير بعيدا وهي منحنية الرأس ومكسورة الخاطر ولكنها لم تكن تعلم كم انتبه لها في تلك اللحظة فكان خلخالها يرن على كعبها ولكن تلك المرة بسبب انكسار خطواتها عكس المرة السابقة عندما كان يركض قفزا على قدم كاميليا بل كان تلك المرة هادئا وواضحا يعيد نفسه ببطء ليذكره بذاته جيدا.

كانت كاميليا في غرفتها عندما فوجئت بزيارة غير متوقعة من رجاء فهل يعقل أن تأتي لها بنفسها في غرفتها المتواضعة جدا؟ فكانت تضحك متسائلة إلى تلك الدرجة استطعت أن أشكل أهمية في حياتكم أو بمعنى أصح أشكل خطورة؟ ولكن على عكس ما كانت تتوقعه كاميليا وعلى عكس ما كانت تتوقعه رجاء نفسها فهي لم تأت لتفتعل أي شجار معها وعلى عكس المرة السابقة لم تحاول إيذاءها أو إهانتها أو إحراجها مجددا بل كانت تحدثها بمشاعر أم بل أنها لم تكن تحدثها بل أنها كانت تترجاها حتى أنها بكت مرات عدة وسط حديثها وهي التي لم تبك أمام شخص قط، فهي دائما ما تظهر في مظهر المرأة القوية، الصلبة والتي لا تهتز حتى لأصعب الظروف لكن استطاعت كاميليا أن تغير كل ذلك، بدأت رجاء حديثها بأنها اختارت أن تذهب إليها هي وليس إلى رمزي فربما تسمعها وتشعر بها أما رمزي فلا جدوى للحديث معه، فهو لا يرى سواك ولا يتقبل أي حديث عن البعد عنك، هو مغرم بك يا كاميليا تلك هي الحقيقة التي لا أستطيع أن أغيرها ولا أستطيع أن أبعده عنك، أنت فقط من تستطيعين ذلك. أنا أعتذر لك عن كل ما بدر مني أثناء العشاء ولكني قليلة الحيلة أمامك وأمام حبه لك. حبك له قد تعوضه الأيام بينما حب الأم لابنها لا يوجد ما يعوضه، لقد عشت عمري بأكمله لا أحلم سوى بأن أراه في أفضل مكانة وأحسن حال وجئت أنت في لمح البصر لتطيحي بكل ما تمنيت وكل ما بنيت، أرجوكِ يا كاميليا لا تحرميني أغلى ما عندي، لا تضيعي شقاء سنوات، لا تضعي نهاية للحلم الذي عشت لأجله. إن رفضتي طلبي فهو لك للأبد وإن قبلتيه سوف أعيش ما تبقى لي من عمر وأنا شاكرة لك في كل مرة أنظر فيها إلى رمزي لأنك كنت سببا ليكون في مكانة أفضل. ثم أضافت رجاء أنا لا أشكك في مقدار حبك له بل بالعكس أنا أراهن عليه فحبك له قد يكون الدافع الوحيد لتبتعدي عنه، لقد جئت إليك لأطلب

منك واستحلفك أن تبتعدي عنه قدر ما أحببته، إن كنت تحبينه حقا فستعلي مصلحته فوق أي شيء، إن كنت تحبينه حقا سوف تتحملين أي ألم وأي جرح مهما صعب من أجله، سوف تضحين ليس فقط بحبك أو بسعادتك بل قد تضحين بنفسك من أجله، هذا ما سوف أفعله أنا، فماذا سوف تفعلين أنت؟ أنا من لم أترجى كائنا من كان بحياتي أترجاك يا كاميليا أن تبتعدي عنه، إن كانت عيناك صادقة لا تكذب، إن كنت تحبينه بقدر ما تبوح عيناك ابتعدي عنه وكانت تحبه كاميليا، كانت تحبه أكثر مما كانت تتصور رجاء، فلو علمت رجاء مقدار حبها له ربما ما كانت أذلت نفسها وذهبت لها لتترجاها، فربما كانت أدركت أنها كانت سوف تبتعد عنه وحدها دون أي توسلات من جانبها، لو علمت رجاء بمقدار حبها له ربما كانت قبلت بها فما خلقت من كانت سوف تحبه أكثر من كاميليا، وكانت هي تود أن تطمئنها، فقد أشفقت عليها مما رأته في عينيها من حزن وخوف وذهول، أشفقت عليها من جلستها أمامها وهي تترجاها وتستحلفها باكية ووعدتها أنها سوف تبتعد عنه وأنهم لن يسمعوا عنها مجددا ولكن طلبت منها أن تستجيب لطلب واحد فقط كما استجابت هي لطلب كثير المشقة، شديد القسوة وهو الابتعاد عن ابنها فطلبت منها أن تقابله مرة أخيرة لتودعه فعندما تقابلا في الصباح لم يكونا يعلما أنها أخر مرة فهي لا تطمع في أكثر من مرة أخيرة تجمعها به. وكان حسن في ذات الوقت يجوب بين ممرات غرف العاملين بحثا عن سهي ولم يكن يريد أكثر من أن يؤمن جانبها، لم يكن يريد أكثر من أن يطمئن أنها لن توشي به، لم يكن يريد إيذاءها على الإطلاق عندما مر عند غرفة كاميليا ليسمع ما دار بينها وبين رجاء وكان في كل مرة يحاول أن يستكمل سيره بحثا عن سهي يجذبه الحديث أكثر فتأبى قدمه أن تسير حتى فاق شغفه بالحديث شغفه أن يجد سهي ووقف خلف الباب ليسمع الحوار

بأكمله ثم ما أن انتهت جلستهم بعد استجابة رجاء لطلب كاميليا وغادرت الغرفة حتى وجد حسن نفسه يقف أمام الباب وهو ينظر لكاميليا وكان يشعر أنه يود أن يذهب ليحتضنها فهي مكسورة ومجروحة، كان يرى النهاية في عينيها ليس نهاية قصتهم إنما نهايتها هي، لم ير ذبولا في عينيها كعادتها بل رأى موتا، دخل حسن ليجلس بجوارها مكان رجاء ووجد نفسه دون أن يفكر يحكي لها قصة أليمة جدا بالنسبة له كانت حكتها له نادية وهي تذبحه تحمل نهايتها أربع كلمات قالهم لها وهو يربط على كفها "وهذا أيضا سوف يمر" لتدخل عليهم سهي التي لم تكن تخلصت بعد من انحناء رأسها لتفاجأ بوجوده مما يزيد من انكسارها فتعيد لكاميليا فستانها وفوقه الخلخال وتضعهما على السرير.

سهي: شكرا يا كاميليا حاجتك سيبتهالك على السرير

وتخرج سريعا من الغرفة لينظر حسن إلى الخلخال ثم إلى كاميليا وقد تأكد من التي رأته في تلك الليلة ليربط على كفها مجددا ويغادر الغرفة.

***

لم تجد كاميليا من تلجأ إليه سوى جميل، ظلت تبحث عنه في كل مكان حتى وجدته أعلى السطح، كانت تبحث عنه لتسأله سؤالا واحدا فقط تمنت لو أن يكون لديه إجابته ولو كانت فقط تعلم مدى قسوة تلك الإجابة لربما ما كانت طرحت السؤال ولا بحثت عن جميل من الأساس، سألته ماذا كان سوف يفعل لو كان مكانها، ماذا سيفعل إن كان يعلم أن تلك المرة هي الأخيرة. أجابها هو بحزن شديد إجابة يغلفها تساؤلاته هو، لماذا لم تشعري بي قط يا كاميليا؟ أأنت من الغباء أم من القسوة أم من السذاجة لتختاريني أنا دونا عن كل من هم على

السفينة لتطرحي علي هذا السؤال؟ فأجابها قائلا إن قرارا آخر مرة لا يقوى على اتخاذه أي شخص بل أنه يتطلب قوة بالغة لا يمتلكها إلا قليلون، فلقد قررت أن تضحي بحبك وفرحتك من أجل شخص عزيز، قررت أن تدفعي ثمن سعادته تعاستك وشقاءك، فتلك من شيم النبلاء، تلك هي أسمى مراحل الحب وأعلى مراتبه، يا ليته هو يعلم كم تحبينه، إن كنت تطلبين نصيحتي فلا تقابلينه مرة أخيرة، أنا مشفق عليك من تلك اللحظة فلحظات الفراق مؤلمة، قاسية ومن الصعوبة أنها ربما تثنيك عن قرارك، لقد حاولت سابقا أن اتخذ قرار آخر مرة ولكني فشلت مرارا وتكرارا ففي كل مرة أتخذ قراري ثم تطل هي بابتسامتها التي تنسيني أسباب اتخاذي للقرار وربما تنسيني القرار ذاته ثم أغرق في عينيها التي لا أستطيع أن أعيش دون النظر إليهما فأرجع سريعا عن قراري بل وألوم نفسي أني قد فكرت فيه من الأساس، فبالنسبة لي لن تكون فقط آخر مرة أراها، بل ستكون أخر مرة لشروق شمس النهار، وآخر مرة تدب الروح بداخلي، ثم استفقت اليوم وأنا أشعر أن النهار صار له دهرا لم يشرق وأن الروح سرقت من داخلي منذ زمن بعيد وأنا كنت مشغولا بحبها حتى أني لم ألحظ ذلك، لذا قد قررت أن تكون تلك المرة هي أخيرا أخر مرة تجمعني بك يا كاميليا، لقد تقدمت باستقالتي للقبطان.

وكانت كلمات جميل أخر ما تتمنى أن تسمعه كاميليا في ذلك الوقت، فمنذ أن رأته وهي تعلم بحبه لها وكانت دوما شاكرة أنه لا يبوح به، ألم يجد غير ذلك الوقت ليس فقط ليعلن لها حبه بل أيضا ليتركها وحيدة وسط كل آلامها، أتصمت كل تلك السنوات لتأتي في تلك اللحظة المريرة وتزيد من مرارتها؟

استكمل جميل حديثه ليقول لها إنه بالرغم من أن أخر مرة لابد وأن تكون مؤلمة وقاسية إلا أنه يود أن تكون أخر مرة تجمعهما مثل

أول مرة جمعتهما، لأن شعوره تجاهها في تلك اللحظة ما زال هو ذاته شعوره في أول مرة رآها، كم أحببتك يا كاميليا وكم تغافلت أنت، تذكريني يا كاميليا حينما تضحكين فلكم تشاركنا الضحكات حتى علت لتشهد عليها السموات، تذكريني حينما تبكين فلكم مسحت دموعك ولكم أسلتي أنت دموعي، تذكريني حينما تدخلين مطبخنا البغيض فهو يحمل بداخله كم ذكريات لا تتناسب مع ضيق وصغر حجمه، تذكريني في رقصاتك فأنا من علمتك إياها، وتذكريني في أحلامك فطالما كنت لي حلما عزيزا.. سوف أشتاق إليك يا كاميليا حتى يصل الشوق منتهاه، أعلم أنه سوف تمر علي لحظات أندم بها على قراري بالرحيل، سأشتاق إلى عينيك، رائحتك، صوتك، كلماتك، ثرثرتك، دلالك، جنونك حتى جفائك وبعدك سوف أشتاق إليه فأنا لم أعرف منك سواه.

يقولها جميل ويرحل عنها ليتركها وحيدة وهي تقف عند السور الذي سقطت منه فريدة لتركض وراءه وتركض معها دموعها وهي تترجاه قائلة: ما تسبنيش يا جميل، بلاش دلوقتي.

ليقترب منها ودموعه تملأ عينيه ويحتضنها وهي تبكي على صدره ثم يقبل رأسها ويحاول أن يحرر يده من يدها وهي رافضة متشبثة بيده لآخر لحظة كطفلة صغيرة متشبثة بيد أبيها خانتها الكلمات فلم تجد ما تقوله لتبقيه فأخذت تحرك رأسها يمينا ويسارا لتعلن رفضها لقراره الذي يوما لم تحسب له حسبانا فكانت تشعر أن بفراقه هو ستغيب شمس النهار وتفارقها روحها لتذهب معه فهي أقرب إليه منها ثم يستخدم يده الأخرى لإزاحة يدها عن يده التي ظلت ممسكة بها رافضة إفلاتها ليرحل بعيدا عنها ولأول مرة يرحل عنها.

***

كان حسن جالسا في غرفته ممددا على الأريكة يرتدي الروب والبيجامة ليتذكر حينما كان ممددا على الأريكة في منزله هو وفريدة وهو يرتدي ذات الروب والبيجامة وتنعكس الصور المذاعة على التليفزيون الذي أخفض صوته على وجهه، فظلت تمر صور أبيض وأسود على وجهه واحدة تلو الأخرى حينما عادت هي بعد أن رآها معه لتريه الفستان التي أشترته لسهرتهم ليعتذر لها عن العشاء الليلة فهو يشعر أنه قد أصابته نزلة برد لتلتفت إلى التليفزيون وتبدي إعجابها الشديد بالأغنية المعروضة فطالما أحبتها فكم هي رقيقة ومليئة بالمشاعر الثرية فأخذت الريموت سريعا لتعلي من الصوت التي ما فهمت ماذا يشاهد هو بعد أن أخفض الصوت تماما وبدأت أن تغني معها

" لا لا لا تكذبي، إني رأيتكما معا ودع البكاء فقد كرهت الأدمع"

ويزيد اندماجها مع الأغنية وتتأثر بكلماتها وهي تخلع حذاءها ومن بعده شرابها الأسود الشفاف الطويل الممتد من أعلى وسطها حتى أسفل قدميها ليراها حسن مجددا وهي تخلعه ويد منير تعلو يديها وهي تعلي بصوتها:

"إني رأيتكما، إني سمعتكما، عيناك في عينيه في شفتيه في كفيه في قدميه"

ثم تبدأ أن تتراقص وتتمايل وهي تغني: "بالهمس، باللمس، بالآهات، بالنظرات، باللفتات، بالصمت الرهيب"

ثم تبدأ أن تمثل وكم كانت بارعة في التمثيل حتى أن عينها في تلك اللحظة كانت صادقة حقا وهي تقول "ويشب في قلبي حريق ويضيع من قدمي الطريق وتطل من رأسي الظنون وتلومني وتشد أذني فلطالما باركت كذبك كله ولعنت ظني"

ثم تفتح ذراعيه لتنام بداخلها وهي تضع رأسها على صدره "ماذا أقول لأدمع سفحتها أشواقي إليك، ماذا أقول لأضلع مزقتها خوفا عليك"

ثم تكف هي عن الغناء ويأخذ حسن الريموت ويعلي الصوت أكثر وأكثر

"أرأيت أنك كنت لي قيدا حرصت العمر ألا أكسره فكسرتيه

ورأيت أنك كنت لي ذنبا سألت الله ألا يغفره فغفرته

كوني كما تبغين لكنك لن تكوني

فأنا صنعتك من هوايا ومن جنوني

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون"

***

كانت تسير كاميليا في السفينة وهي تائهة لا تعلم واجهتها ولا تعلم إلى أين تحاول الوصول فلم تعلم حتى عن ماذا تبحث أو عن من تبحث فبعد جميل لا يتبقى لها أحد فهي لم تكن يوما على تلك السفينة من دونه، لم تواجه يوما الحياة من دونه، فهي لا تعلم كيف عليها أن تعيش وحدها بعيدا عنه وكانت تشعر بذنب رهيب فكانت تفكر كم جرحته، ألمته وآذته وكم كان يتحمل هو دون أي شكوى أو اعتراض حتى أنها بدأت تعتقد أن ما يحدث لها الآن مع رمزي وكم الألم التي تعانيه ما هو إلا عينة صغيرة مما أذاقته هي إلى جميل على مدار سنوات، حتى وجدت رمزي أمامها يقترب منها ويمسك بيدها ليعبر عن مدى اشتياقه لها لتسحب هي يدها سريعا من يده وتقول له إنها قد عاهدت نفسها أن تبتعد عنه قدر ما استطاعت، فكلاهما أذى لبعض، فأقرب الناس إليك يظنون أن وجودي بجانبك شرا كبيرا لك

وربما يكونون محقين كما أن وجودك بجانبي هو أيضا كثير الضرر والأذى لي، فوجودك جعلني أجرح أعز الناس إلي دون حتى أن أشعر بكم الأذى الذي لحقته به حتى أنه قد غادر وتركني وحيدة، وأنا لا أقدر على العيش من دونه فهو الذي لم يجرحني يوما رغم إني كنت أجرحه في كل لحظة، هو من كنت أحكي له عنك في كل ليلة وأنا أتجاهل الحزن الساكن في عينيه، هو من قرر تركي الآن بسببك أنت، فعلاقة لم تتعد اليومين دمرت علاقة عمرها سنوات، علاقتي بك آذتني بشدة، دمرتني، فابتعد عني قبل أن تؤذيك أيضا، وأتركني لما أنا فيه.

***

صعدت نادية أعلى السطح لتتجه ناحية السور الذي ألقى حسن منه فريدة، وقفت في ذات مكانهما واقتربت ناحية السور وهي تضع يدها فوق يد فريدة التي كانت أرستها على السور وهي متشبثة به رافضة السقوط وتسمع صرخاتها واستغاثتها تحيط بها من كل مكان ثم تراها بعد أن أوقفها حسن على الناحية الأخرى من السور وهي ممسكة بيده، تترجاه وتتوسل إليه ألا يتركها ثم ترفع فريدة عينيها في لحظة كانت أقسى عليها من كل ما سبق، اللحظة التي رأت فيها نادية واقفة في الدور الأعلى تشاهد ما حدث ليلتها دون أن يهتز لها شعرة وتلتقي أعينهم هم الاثنان لتشعر فريدة أن ها هي صديقة عمرها قد جاءت لتخلصها من بين يدي هذا المجنون وقبل أن تصرخ وتستغيث بها كانت قد أدركت أنها هي من أوقفتها على الناحية الأخرى من السور فكانت ابتسامتها لفريدة أشد ألما من كل ما عانته أسفل الماء فربما أن ابتسامتها كانت قد قتلتها قبل أن تصل إلى الماء لتفلت يدها من يد حسن وكان آخر ما رأته عيناها هي نظرة نادية لها التي جاءت خصيصا لتودعها وهي تحمل معها سنوات عمرهما التي قضياها سويا ولم تكن تعلم من منهما التي ألقت بالأخرى؟ ثم يظهر لنادية وجه فريدة في الماء

لتسألها كيف صعدت لغرفتها في تلك الليلة لتنام دافئة مستريحة بعد ما رأته عيناها لتجيبها نادية أنها لم تنم في تلك الليلة ولا فيما سبقها من ليال فهي لم تنم منذ أن علمت بخيانتها.

أكملت فريدة كيف استطعت أن تقفي لتشاهدي لحظات موتي؟ مهما كان حجم أذيتي لك فأنا لم أقف لأشاهد موتك لتتعجب نادية بشدة كيف لم تقفي لتشاهدي موتي وأنت من قتلتني من الأساس فتقول فريدة أن هناك فرقا كبيرا بينهما هما الاثنين فأنا أقوى منك بكثير فقد عشت حياة سعيدة ما كنت لتحلمي بها يوما، عشت وأنا زوجي لا يرى غيري ولا يحلم بغيري ليس فقط زوجي إنما زوجك أنت أيضا، كان لدي عائلة وأبناء يتفاخرون بي في كل مكان إنما أنت كنت أضعف مما كنت حتى أتصور فحتى حينما علمت بحب زوجك لي كنت أضعف من أن تواجهيني أو تواجهيه بل ركضت إلى حسن لينتقم هو لك، لقد مت بأصعب الطرق وأبشعها ولكنها كانت تتناسب مع قدر القوة التي أمتلكها فرغم خوفي طوال حياتي من البحر ولكني لم أكن أعلم أنني استطيع أن أواجهه بكل تلك القوة، لو كنت أنت مكاني يا نادية لمت قبل أن تصلي إلى الماء، قبل أن يلمس الماء جسدك وتشعري ببرودته الحادة إلى درجة كفيلة أن تقتلك وحدها، لكنت مت فقط من الفكرة، من الرعب ولكن العذاب الذي مررت به قبل أن أموت قد طهرني من أي ذنب ارتكبته، محا أي ندم كنت أحمله في قلبي لك إنما أنت سوف تعيشي وتموتي بذنبك ولن تستطيعي لحظة أن تتخلصي منه، لقد مت يا نادية لكني مت وأنا قوية إنما أنت سوف تكملي حياتك وأنت جبانة وضعيفة وأخر ما أود أن أقوله لك هو إني من قلبي سامحتك بينما أنت كنت أضعف من أن تسامحيني.. لترد نادية قائلة لقد مت يا فريدة الميتة التي تليق بك أنا لم أكن مجرد صديقة يا فريدة لقد كنت أختا لك، كنت أركض إليك لأشكو لك بعده عني

وكنت تشاهدين عذابي وعنائي ولم يخطر ببالي للحظة أن تكوني أنت سبب تعاستي، أني أعلم كم قوتك يا فريدة إنما لا تعلمين أنت كم غبائك فطوال تلك السنوات ورغم قربك الشديد لي لم يسمح لك ذكاؤك أبدا أن تفهمي أن منير هو الذي حرم من الإنجاب وليس أنا فانبهرت بشهامته ورجولته وحبه الأبدي الذي طمعت فيه وهو من ناحيته استغل غباءك واستبدل الرخيص بالغالي فأنا كنت الشاهدة على عجزه وضعفه وكنت أنت المبهورة بحبه وتضحيته. لا يا فريدة لم أسامحك ولن أسامحك يوما لست لأني ضعيفة ولكن لأنك لا تستحقين.

***

لازم جميل حجرته ليجمع حقائبه فالليلة هي ليلة الوصول إلى مصر وأخر ليلة له على السفينة بعد أن تقدم باستقالته إلى القبطان والحقيقة أنه لم يكن يجمع ملابسه فما كان يجمعه حقا هو ذكرياته، آلامه، ضحكاته وأحزانه فقد صار له عمر على تلك السفينة فهي بيته الحقيقي ومن عليها هم أهله وأحبابه وفراقهم أليم، كم هي قاسية الحياة فهو ما تعلق بمكان قدر تعلقه بتلك السفينة وما كان يتمنى يوما أن يغادرها ولا كان يتمنى أن يبعد عن كاميليا، فلماذا أجبرته الحياة على ذلك؟ فحتى ولو لم تحبه ولكن إلى من سيشكي جراحه بعد الآن، حتى ولو كانت هي المتسببة فيها، مع من سيشارك الضحكات وهل سوف توجد ضحكات بعدها، ومن سيهون عليه أيامه وهي أحن من خلقت على وجه الأرض، لم يكن يتصور أن ندمه على قراره بالرحيل سوف يبدأ بتلك السرعة، سوف يبدأ حتى قبل أن يرحل، ثم وجد رمزي يطرق على بابه ويستأذنه في بعض الدقائق من وقته، بدأ رمزي كلامه بأنه ليس بمحل أن يطرح نصيحة أو أن ينقل خبرته إلى جميل بل العكس هو الصحيح وإنما طلب منه أن ينصت جيدا إلى كلامه ثم يقرر ما يشاء.

قد تكون غافلا عما تمتلكه بين يديك فقد تمتلك شيئا ثمينا ولكنك لم تتوقع أن يكون مقسوما لك فلا تشعر به حينما يستقر بين يديك كالطير ليكون له مأوى، قد يصل قدر تعلقه بك لدرجات تفوق ما تحلم به ولكنك لا تدرك ذلك لأنك تبحث فيه عن شيء مختلف فلا ترى جمال ونقاء ما تقدمه لك، فما تمنحك هي إياه يفوق صدق وروعة ما تحلم أنت به في خيالك، حبها لك يفوق أي حب طلبته أنت منها يوما، فحتى ولو لم تكن أنت رجل أحلامها ولكن الأكيد أنك كنت وستظل الرجل الذي تملكها إلى الأبد فلا تتخلى عنها الآن. ولم يكن جميل بحاجة أن يبذل معه رمزي أي مجهود لإقناعه فهو لم يكن يقدر على الرحيل أبدا.

***

وكانت كاميليا جالسة أعلى السطح تنظر إلى السماء وهي شاردة وقد جفت الدموع في عينيها ليحل محلهم ذهول فهي ما توقعت يوما أن يتركها جميل بتلك البساطة، يتركها في أصعب لحظاتها دون أن يطمئن عليها ولأول مرة كان هو السبب في جراحها ثم صعد حسن وما أن رآها حتى ذهب إليها وجلس بجوارها لم تنظر هي له، حتى كلماته التي ما كانت تتصور أن يخيفها أكثر منها لم تعد تخيفها بعد الآن فلم يعد هناك ما يخيفها من الأساس فماذا تبقى لها لتخاف عليه.

حسن: كنت عارف أنك أنت اللي شوفتيني، من أول مرة شوفتك فيها، أصلك حاجة تانية خالص غيرها معرفتيش تكذبي مهما كنت بتحاولي تخبي عنيكي كانت بتفضحك، أصلها لسه بريئة معرفتش تلاوع مهما كنت بتحاولي تبيني أنك حباني ومتعاطفة معايا كنت بشوف في عنيكي أد أيه أنت كارهاني ومكنش في أي سبب غير أنك تبقي أنت اللي شوفتيني

لترد كاميليا ببرود لم يسبق لها أن عرفته هي في نفسها: ولما أنت كنت عارف مخلصتش مني ليه؟

حسن: علشان أنت مش فريدة وعلشان أنا مش قاتل يا كاميليا

لتبتسم كاميليا لأول مرة منذ العشاء المشئوم الذي جمعها بتوفيق ورجاء ولكنها ابتسامة ساخرة تسخر منه ومنهم ومن ذاتها ومن كل العبث الذي يحيط بها.

حسن: في مواقف الواحد لما بيتحط فيها بتكون فوق طاقة احتماله، مواقف بتطلع منه شخص هو ماكنش يعرف بوجوده، بتخلي كل الحب والحنية اللي جواه يتحولوا لكره وقسوة وغضب كفيلين أنهم يخلوه يمحي الشخص اللي أذاه من على وش الأرض الإحساس بالندم أصعب إحساس ممكن تحسي بيه

وكانت تشعر كاميليا بصدق كلماته فشعورها بالندم على أنها أضاعت جميل كانت قاتلة ومؤلمة حتى أنها كادت أن تفوق آلام جميل ذاته.

ثم استكمل حسن: أنا الندم بيعذبني في كل لحظة، كل ما بفتكر نظرة عنيها لي وأنا بفلت أيدها من إيدي وبتخيل العذاب اللي ممكن تكون شافته، فريدة على فكرة كانت بتترعب من البحر، أنا اخترتلها أبشع موتة من وجهة نظرها، بس عارفة أيه أكتر حاجة حسستني بالندم؟ أنت يا كاميليا، أنت مش بس خلتيني أندم أني موتها، أنت خلتيني أندم أني عرفتها، حبيتها، عيشت معاها طول السنين اللي فاتت، خلتيني منامش الليل من الإحساس بالندم من غير ما تقولي حاجة ولا تعملي حاجة، مش علشانها إنما علشاني لأنها قبل ما تموت شوهتني خلتني شخص مشوه زيها، قاتل وقاتل لمين لمراتي وأم ولادي

علشان كده ورغم أن هي اللي ماتت بس هي اللي انتصرت علشان موتت معاها كل حاجة حلوة كانت فيا

كانت بتخاف قوي من البحر مع أن المرعب فعلا مش البحر، المرعب فعلا هو الزمن، الزمن اللي خلى واحدة المفروض تتشال على الراس الناس ترفضها وتحاربها لمجرد أنها واحدة على قدها بترقص في فرقة استعراضية، الزمن اللي خلى جميل يحبك الحب ده كله وما يقدرش حتى أنه يقولك، الزمن اللي خلى أعز صحاب يخونوا بعض، الزمن اللي خلى أعز صحاب يقتلوا بعض، الزمن اللي خلى فريدة تكون أم ونادية متكنش أم، الزمن اللي خلى فريدة تخون أحلى سنين العمر، الزمن اللي خلاني أنا الدكتور حسن بقيت قاتل، الزمن مرعب، وتغيرات الزمن وتقلباته مرعبة، هو ده فعلا اللي الواحد المفروض ينحنيله من الرعب وينحني لعظمة قدرته في تبديل الأحوال، علشان كده لو فريدة ماتت مرة في البحر فإحنا بنموت هنا كل يوم وفي كل لحظة من غدر الزمن.

وكانت استطاعت كلمات حسن أن تذرف الدموع من عين كاميليا واستطاعت أن تجذب انتباهها حتى نظرت إليه لتسأله عن ما الذي وصل بهم إلى تلك الدرجة..

حسن: من ساعة ما عرفت، من ساعة ما شوفتها معاه وأنا كان نفسي ألاقي حد أحكيله بس ملاقتش، ومن ساعة ما عرفتك وأنا نفسي اقعد معاكي وأحكيلك حتى لو هتطلعي من هنا وتروحي تبلغي عني مبقاش فارق معايا كل اللي فارق معايا أني اقعد معاكي وأحكيلك، عندك وقت تسمعي القصة؟

***

كانت الليلة هي الأخيرة على السفينة عندما قرر حسن أن يتجه إلى غرفة نادية ومنير ليخبرهما بما أخبره به القبطان من أن السلطات الفرنسية قد أغلقت القضية على أنها انتحار، جلسوا هم الثلاثة على مائدة مستديرة يترأسها حسن وكان يتحدث وكأنه يخطب في الجموع، ماتت فريدة ولن تفتح قضيتها مرة أخرى وسوف ينساها كل من سمع عنها وكأنها لم تحدث ولكن هل بالفعل أغلقت القضية؟ لا لم تغلق بل وأنها لن تغلق أبدا، ستظل القضية حية بداخل كل منا، فكل منا بداخله يعلم الحقيقة التي طالما كانت ملتوية، مختبئة، مخيفة ومفجعة ولكن لا يستطيع أحد البوح بها، لا يمتلك أحد منا الشجاعة الكافية لقول الحقيقة ولو حتى لنفسه فهي قاسية ومشوهة مثلها مثل كل منا، ولن تتصالح مع نفسك إلا عندما تستطيع أن تبوح بها وستظل عبئا ثقيلا عليك لن تتخلص منه حتى تستطيع أن تبوح بما ارتكبت، فهل تستطيع يا منير؟ ليتأكد منير في تلك اللحظة من كل الشكوك التي ظلت تراوده، فأنه لم يأت ليخبرهم بقرار السلطات الفرنسية بغلق القضية بل أنه أتى ليفضح أمره وليخبر نادية بخيانته.

أي حقيقة تتحدث عنها؟ وأين الحقيقة في قضية فريدة؟ أيعقل أن تنتحر بأن تلقي نفسها في البحر هي التي ما خافت في حياتها أكثر منه؟ أين الحقيقة في إصابتها بالسرطان؟ أتستطيع أنت أن تنظر لي في عيني وتقول إن فريدة كانت مصابة بالسرطان؟

لينهض حسن من على المائدة ويبدأ أن يتجول في الغرفة قائلا أراك تتحدث عنها بحرقة شديدة، لماذا لم تخبر السلطات الفرنسية بما تقول؟ فكما قلت لك الحقيقة أصعب من البوح بها، ولسبب آخر أهم وهو أن فريدة في نظرك لا تستحق المجازفة بما ستخسره من اعترافك بالحقيقة. وعندما أيقن منير أن حسن قد قرر أن يفشي بسره وأن يعلم نادية بالأمر بأكمله، لم يتمالك أعصابه فبادر بأن ما يجمع بينه

وبين نادية أكبر بكثير من الذي كان يجمع بينك وبين فريدة فإن كنت أتيت إلى هنا لتهدم علاقتنا فأنت واهم، فعلاقتنا أقوى من أن تهدم في لحظة بسبب غلطة، كان يتحدث وهو يحرك يديه في كل الاتجاهات بل أنه كان يحرك جسده بأكمله، فكان شديد التوتر، شديد العصبية، ثم نزل على ركبتيه أمام نادية وأمسك برأسها بين يديه، لا تستمعي إليه لقد فقد عقله بل اسمعيني أنا، أنا كنت سأحكي لك عن كل شيء بمجرد وصولنا إلى مصر..

نادية: تحكيلي أيه يا منير

وحينما اندفع حسن ليتحدث طلبت نادية منه سريعا أن يصمت فهي لا تريد سوى أن تسمع منير الذي كان يتصبب عرقا فترى قطرات العرق هاربة من أعلى رأسه لتسيل على خديه وصولا إلى رقبته مع أنه في ذات الوقت كان يشعر ببرودة شديدة حتى تكاد ترى جسده وهو ينتفض، فأخذ يشرح لها أنه قد اخطأ خطأ كبير ولكنه ما ندم على شيء قط في حياته قدر ندمه على ذلك الخطأ. فأنا لا استطيع أن أضيعك من يدي ولا أتخيل لحياتي معنى من دونك وأنا واثق أنك سوف تسامحيني

نادية: أنا مش فاهمة يا منير

ليكمل أن فريدة لم تكن صديقة وفية كما تظنين، فهي لا تستحق حزنك عليها، لقد خانتك، غدرت بك وأنت أعز صديقاتها، حاولت مرارا التقرب مني وكنت دائما أرفضها ولكن في مرة ضعفت، أخطأت يا نادية، أخطأت خطأ لا يغتفر فلكي كامل الحق أن تغضبي وتثوري وربما تلعنيني ولكن أرجوك أن تسامحيني في النهاية، يا ليتنا ما عرفنا فريدة، يا ليتنا ما تقربنا منهم، فهي لعنة أصابتنا فدمرتنا واحدا تلو الآخر..

واندفع حسن صارخا غاضبا، يصرخ ألما وتشتعل نار عينيه التي كانت كفيلة أن تحرق منير والسفينة وكل من عليها وهو يركض تجاهه ليمسك به ويلقيه بكل ما يمتلك من قوة فوق المائدة الزجاجية التي كانوا يجلسون حولها ليطرحه أرضا وتتناثر قطع الزجاج سريعا في كل مكان ويعلوها منير، فكان كلامه موجعا جدا بالنسبة لحسن، وبالرغم من أنه لم يخطأ في توصيفها ولكنه كان في النهاية يتحدث عن فريدة، زوجته وشريكة عمره، نعم خانت، نعم هي بالفعل لعنة أصابتهم جميعا ولكنها كانت وستظل فريدة التي امتلكت قلبه منذ اللحظة التي رآها فيها، كما أنه لا يقل عنها بشاعة فعلى الأقل نالت هي ما تستحق إنما هو ما زال جالسا بيننا ليعطينا درسا في الصداقة والتسامح والمحبة، وظل حسن يلكمه بكل ما يمتلكه من قوة حتى غطت الدماء وجهه ولم يعد له ملامح واضحة وكان منظر دمائه يريح حسن بشدة رغم طبيعته التي تتنافى مع أي مظهر من مظاهر العنف ولم يكتف فقط بضربه فأراد أن يؤلمه أكثر وأكثر فكان يعطيه فرصة بين اللكمة والأخرى لينزل عليه بكلماته ليزيده ألما "لا أظنها سوف تسامحك فهناك من الأخطاء التي لا يجوز فيها التسامح" وكأن كانت كلماته من شدة ألمها هي ما منحته القوة ليدفعه بعيدا عنه ليقع حسن على الأرض ويعلوه منير ليضربه بقدر الشكوك التي ظلت تراوده طوال الرحلة وبقدر الخوف الذي لازمه منذ أول ليلة وبقدر ما يخسره الآن فأنه يخسر نادية إنها تضيع من بين يديه إلى الأبد وكان حسن مستسلما لضربات منير وكأنه كان في انتظارها وكأن آلامها كانت من القوة أن تنسيه لآلامه هو التي أصبحت دفينة به لا تغادره لحظة.

وظلت نادية جالسة كما هي لم تتحرك خطوة تشاهدهم دون أي تأثر من جانبها فحديث منير كان قد أصابها بصدمة وكأنها كانت للتو فقط علمت بخيانته، كيف اعترف لها أنه خانها، قالها بكل بساطة

وهي كانت تظن أنه لا يقوى أن ينطقها لسانه، أنه لا بد وأن ينكر، فكم هي صعبة، فكلمة واحدة تحرق وراءها سنوات عمرهما بأكمله، فكيف قالها بكل تلك السهولة، كيف أعقبها على الفور بطلبه أن تسامحه وهو يعتقد حقا أنها قد تسامحه، ثم تحرقها وتؤلمها أكثر وأكثر كلماته لحسن وهو يضربه وكأنه هو من خانه وغدر به، يضربه وهو يملأه الغضب والكره ولا يكتفي بكل ما فعله، لا يخجل منه بل يريد أن يقتله بدل المرة ألفا، يقول وكأنه نسى أن نادية ما زالت معهم في الحجرة ولم تغادرها بعد، أراك لا تتحلى بصفات الرجال فأنت حتى لا تستطيع أن تدفع الضربات أو أن ترد الضربة بأخرى، محقة كانت فريدة في كل ما قالته عنك، لينظر له حسن في لحظة رأى فيها وجه فريدة بدلا من منير وهي تبتسم له لتأكد له صحة كلام منير، فنعم قلت عنك الكثير، ليأتي حسن بقطعة من الزجاج ليضعها على رقبته بعد أن أحكم قبضته عليه ونجح في أن يلقيه أرضا ليصبح أسفله وهو يضغط بها على عروقه وتبدأ الزجاجة في شق طريقها إلى رقبته لتبدأ الدماء في أن تسيل وهو ينظر إلى نادية، ماذا تريدين أنت يا نادية؟ ماذا يمكن أن أقدمه لك لتسامحيني؟ إذا كانت حياتي ثمنا لتسامحيني فلتدفعي أنت الزجاجة بيدك، أهون علي أن أموت على أن أعيش في دنيا أنت لا تريديني فيها، فها أنا أضع حياتي بين يديك، يهون عمري بأكمله أن لم تسامحيني أنت. كانت لا تمر تلك اللحظات كان ينظر لنادية ودماؤه تسيل في انتظار أن يسمع منها كلمة أيا كانت ولكن لم تكن هي تريد أن ترحمه فحرمته تلك الكلمة وكان حسن يتلذذ بإذلاله ولم يكن ينوي قتله في أي حال فقد ندم أشد الندم على قتله لفريدة ولكن على الأقل هي فريدة إنما منير لا يستحق أن يندم لحظة عليه فانتظر إلى أخر لحظة حتى وصلت الزجاجة لأعمق جزء داخل رقبته قبل أن تقتله بالفعل وهو ينظر لنادية ويتوسلها أن تنطق بكلمة ولكن

قبل أن تنطق هي ألقى حسن بقطعة الزجاج ليسلبه أي كلمة كان من الممكن أن تريحه ثم يقف وهو ينظر إليه أسفله وهو ملقى على الأرض ثم يبصق على وجهه قبل أن يغادر الغرفة وتذهب إليه نادية وتجلس على الأرض بجانبه وتضع يدها في يده كيفما كانوا دائما يفعلون ولكن تلك المرة كانت يده يملأها دمه المختلط بدماء حسن

منير: سامحيني يا نادية

نادية: أنت مسألتنيش أنا كنت فين ليلة موت فريدة

لينظر لها باستغراب شديد فما هذا السؤال الغريب في هذا التوقيت ثم وفي لحظة يرى في عينيها الإجابة فكانت واقفة لتشهد على موتها، كانت تعلم منذ البداية بل أنها أول من علمت ثم تقول له إن عذاب فريدة هو أن تموت في البحر وعذابك أنت أن تعيش في الدنيا، فحياتك كلها أرخص من أن تدفعها ثمن لأسامحك، ثم تسحب يدها من يده وقد تلوثت بلون الدم وهو في حالة من الذهول فهو لم يخطر بباله لحظة أن تكون نادية أطهر من خلقت على وجه الأرض هي من خططت لكل ذلك.

***

كان العرض قد بدأ، أغلقت أنوار المطعم وأضيئت أنوار المسرح لتدخل كاميليا وتؤدي العرض كما لم تؤديه من قبل، كانت مبدعة، أضافت بسحرها على كل من رآها في تلك الليلة فبالرغم من أنها لم تتمرن عليه بشكل كاف ولم تعط للعرض اهتمامها المعتاد إلا أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك، فكانت مشاعرها هي من تحركها على المسرح وليس خطوات محفوظة متفق عليها مسبقا، لتعلو فوق أي تمرين، فأخرجها ألمها ومشاعرها عن العرض المتفق عليه لتقدم عرضا آخر لم تتمرن عليه يوما، عرض أكثر صدقا، حتى أنه قد مس كل من وجد

ليلتها فكان يفج منه المشاعر، وكانت تلمع عيناها وهي ترقص حتى أنك لا تكاد تعلم إن كانت تلك اللمعة من انعكاس ضوء المسرح في عينيها أم أنها دمعاتها التي أبت الخروج أمام الحضور أم أنه الحزن والفقد والاشتياق يطلون من عينيها فربما يشعر بهم أحد، استطاعت دون أن تقصد ودون أن تحاول أن تنقل ذلك الشعور إلى الجالسين مما زاد من سحرها وجمال تأثيرها، فقد أضافت بعدا آخر للكلمات تجعلك وكأنك تستمع إليها لأول مرة، تجعل دقات قلبك تنبض على لحنها..

"وأنا كل ما أقول التوبة يا بويا ترميني المقادير يا عيني ترميني المقادير يا عين

وحشاني عيونه السودا يا بويا ومدوبني الحنين يا عين ومدوبني الحنين يا عين"

وسادت حالة عامة في المكان أضاعت أجواء الاحتفال بالوصول إلى مصر، ففي وسط عتمة المكان والظلام السائد في المطعم بعد أن أغلقت أنواره كانت تكاد أن تضيء أعين الحضور المكان بعد أن تلألأت بها الدموع، فلا يوجد من لا يشتاق إلى عزيز فارقه.

ثم يتوجه رمزي بحديثه إلى توفيق ورجاء وفي خلفيه كلامه

"متغرب والليالي يا بويا مش سيباني في حالي يا عين"

وأمامه كاميليا وهي ترقص أحزانهم وأوجاعهم

رمزي: أنا مش هسيب كاميليا، أنا أسف إذا كان قراري ده مش هيرضيكوا، بس أنا مش هقدر أسيبها.

لم يرد أي منهم فكان أداء كاميليا للرقصة التي أهدتها إلى رمزي دون أن تخطط لذلك ودون أن تعلن عنه ورد فعله هو بحسم قراره كانوا أعلى من توفيق ورجاء وكانوا يعلمان أن أي شيء سوف يقولونه

الآن لن يكون له أي قيمة ، فكان الجميع وكأنهم مخدرين، يشاهدون في صمت فلا يقوى أحد على الحديث فما من كلمات ترتقي إلى تلك المرتبة من المشاعر التي أفاضت بها كاميليا لتملأ المطعم من أسفله وحتى أعلاه حتى أن تشبعت بها الجدران.

ولم يستطع جميل ألا يشاهدها، أن يتخلى عنها، لم يستطع ألا يجيب رجاءها بل لم يستطع أن يجعلها تترجاه من الأساس، فوقف خلف ستارة الكواليس حتى لا يرى أحد دموعه التي كانت واضحة للجميع، فاضحة لمشاعره وتبوح بحبه مهما خبأها هو لتسيل من عينيه فقد اشتاقت لرؤيتها فما كان يعلم إن كانت دموعه تسيل حزنا أم فرحا بأنه عاد لها ليراها مجددا وكأن دموعه هي من استكملت الغناء تلك المرة لتشكو لها فعلته..

"القلب الأخضراني يا بويا دبلت فيه الأغاني يا عين

ولا قادر طول غيبتكوا يا بويا يشرب من بحر تاني يا عين"

وكان حسن يسير خارجا وهو ملطخ بالدماء وتغادر نادية غرفتها وهي تضع نهاية أبدية لقصتها مع منير الذي ظل ملقى على الأرض تتملكه حالة من الذهول وفي خلفيتهم

"وأنا كل ما أقول التوبة يا بويا ترميني المقادير يا عين

وحشاني عيونه السودا يا بويا ومدوبني الحنين"

انتهي العرض ليهتز المسرح تصفيقا بل وتهتز السفينة بأكملها فقد أدت كاميليا عرض عمرها ولكنه بالنسبة لها لم يكن محسوبا من ضمن عروضها، وكيف يحسب وهو لم يحضره جميل ولم ير كم تعلمت منه ثم دخلت إلى الكواليس لتراه من ظهره فقد رأى العرض بأكمله ثم استدار لها فكان يعلم أنها وراءه لترى دموعه التي طالما

حبسها عنها لتركض إليه وترتمي في أحضانه وهي تبكي بحرقة، تبكي بقدر ما أبكته، تبكي أسفا، توسلا ألا يتركها، تبكي حبا وإعزازا ليمسح هو دموعها بيده كيفما كان يفعل دائما فاستطاع أن يرسم على شفتيها ابتسامة وسط كل تلك الدموع فقد فهمت أنه لن يتركها، فمهما قال ومهما فعل سوف يظل هو جميل وتظل هي كاميليا.

صعد الجميع أعلى السطح لتبدأ الاحتفالات بوصول السفينة إلى مصر في الصباح، وكان الجميع يرقصون على صوت الأغاني الذي علا بشدة حتى أنه كاد أن يسمعها من يوجد عند الميناء، وبالرغم من أنه غير مسموح للعاملين على السفينة بالتواجد مع المسافرين في أماكن احتفالاتهم وغير مسموح لهم أن يشاركوهم تناول الوجبات إلا أنه في تلك الليلة فقط يستثنى أعضاء الفرقة الاستعراضية، فصعدت كاميليا إلى مكان الاحتفال ومعها جميل وكانت تشعر بطمأنينة بالغة لوجوده معها، لم تكن تتخيل كم الحزن والخوف الذين سوف يصيبونها إن تخلى عنها، لم تكن تعلم مكانته الحقيقية في قلبها إلا عندما اتخذ قراره بالرحيل فظلت تنظر له في كل دقيقة لتطمئن من وجوده، لتشكره على وجوده ولتشكر الأقدار التي بعثت به لها، فهو مصدر الأمان في حياتها ثم وضعت رأسها على كتفه وبدأت تدندن بكلمات ما أن سمعها حتى سالت دموعه سريعا وكأنها انفجرت من عينه

"رايح أجيب الديب من ديله وأقلق نومه في نص الليل وإن معرفتش أجيبه هاسيبه وأرجع أقول ملقتلوش ديل"

فكانت تلك هي أول أغنية مرنها عليها جميل حينما رآها أول مرة وهي طفلة صغيرة لا تعلم شيئا عن الرقص بل وعن الحياة بأكملها، ثم أكمل معها الغناء وصوته يرتجف ألما

"طيب قولي هتسافر ليه وقولي كمان راح تركب أيه"

وكانت تنظر له وهي تراه يومها، يوم أن أمسك بيدها ليعلمها أول خطواتها في الرقص ومنذ يومها وحتى الآن وهو ممسك بها ولم يتركها أبدا مهما قست عليه الظروف، وكان ينظر هو لها وهو يراها وهي طفلة تخطأ في كل الخطوات، محرجة من أخطائها، خائفة من ردة فعله وكيف تملكته براءة عينيها من يوم أن رآها وصولا إلى تلك الليلة وحتى ينتهي به العمر.

ثم انضم إليهم سهي وياسمين اللاتي ينتظرون تلك الليلة من الرحلة إلى الرحلة، فتلك هي الليلة التي يختلطون فيها بباقي المسافرين، يرقصون، يغنون ويأكلون معهم، فيعيشون حياة غير التي اعتادوها لمدة ساعتين، يحاولون جاهدين نسيان أي حزن، خوف أو تعب قد مروا به في خلال ذلك الوقت، ساعتين فقط ينسون فيهما كل همومهما، يعيشا شخصيات أخرى ويندمجا بها لدرجة أن حديثهما تجده قد اختلف، أسلوبهما، حتى نظراتهما تختلف إلى أن تنتهي الاحتفالية، فيعودا كما كانا مرة أخرى، شاءا أم أبيا، قبلا أم كرها ثم تبدأ محاولاتهما من جديد في الرحلة التالية آملين أن يراهما أحد، أن يشعر بهما ويغير حياتهما أحد وأن يحضرا المرة القادمة إلى الاحتفالية ليس لمجرد ساعتين إنما يكونا بصحبة أحدهم، يكملا معه رحلته بعد انتهاء الاحتفالية وربما لا يعودان إلى السفينة من جديد.

أما رمزي فقد ظل منتظرا حتى غادر جميل وكانت تقف كاميليا وحدها، فلا يريد أن يؤلمه أكثر من ذلك فكان الشرخ الذي أصابه واضحا للجميع ولا يريد أن يزيد منه عمقا، اقترب من كاميليا وأمسك بيدها ليقبلها ولم يحدثها فيما قالته له آخر مرة تقابلا فلا قيمة له عنده، وأخذ يقول لها إن الأيام القادمة لن تكون سهلة أبدا وأن

عليهما مهمة شاقة وهي أن يكتسبا حب والديه وموافقتهما ولكنه أكيد أنها سوف تنجح في ذلك، حتى ولو لم ينجحا من أول مرة فهو لن يتخلى عنها أبدا، سيظلان يحاولان حتى ينتهي بهما العمر، لن يستسلما أبدا، ولن يفلت يده من يدها مهما اشتدت عليهما الحياة وتعقدت بهما الأمور لتحتضنه هي وسط غناء الحضور وهتافات المسافرين وتعلوهما الألعاب النارية التي كانت وكأنها اشتعلت لهما خصيصا، هما فقط دون غيرهما.

ولم تستطع نظرات ليلى الحاقدة والمتوعدة لها أن تقلل من فرحتها بل بالعكس قد زادتها فرحا حتى أنها قررت أن تتنازل عن لحظة ثمينة من لحظاتها بين ذراعي رمزي فقط لترسل لها ابتسامة المنتصر للمهزوم الذي يتمنى للخاسر حظا موفقا في المرة القادمة، ثم أحكمت ذراعيها بشدة حول ظهره وهي تحتضنه لدرجة أضحكته، فكانت تشكره أنه هو من قدم لها فرصة النصر، ثم انتبهت لسهي وياسمين اللتان ينظران لها وفي عينيهما كسرة وخيبة أمل رغم ابتسامتهما لها التي لم تكن يوما كاذبة أو مصطنعة فكانا حقا سعداء بفرحتها متمنيين لها الخير والسعادة ولكنهما كانا فقط يتمنيا ولو جزء صغير من تلك السعادة لقلبهما الذي لم يفرح يوما، وأرادت كاميليا أن تطمأنهما أنه سيأتي يوما ويفرحان فيه بقدر ما يستحقان، وما يستحقانه هو أكثر بكثير مما يحلمان به، سيأتي يوما ويفرحان فيه بقدر حزنهما في ليال كثيرة وحيدة، سوف يأتي اليوم الذي يفرحان فيه بقدر فرحتها هي الآن، كانت تحدثهما بعينيها وهي بين ذراعي رمزي ولكنهما استمعا لكل كلمة قالتها فقسوة حياتهما علمتهما أن يقرأون ما في أعين بعض، فطالما كانت أعينهم تحمل ذات المعاني وقد وصلت من كاميليا إلى قلوبهما لتريحها وتهدئها فربما تصدق كاميليا وتحمل لهما الأيام القادمة ما يزيل دمعاتهما ويسعد نفوسهما.

صعد حسن إلى أعلى السطح وهو تائه، مشوش، يسير كالمجنون، وجهه يملأه الندبات إثر شجاره مع منير وندبات أخرى إثر الزمن عليه، وملابسه يلطخها الدماء وكان يسير بين الحضور وهو ينظر إليهما وكأنه لا يعلم أين هو، ماذا أتى به إلى هنا، ماذا حدث وأين فريدة؟ حتى وصل إلى السور الذي ماتت من عنده فريدة ليقف عنده وهو في حالة من الذهول ثم استدار للركاب وهم يحتفلون ويرقصون وكأن لم يحدث شيئا، كأن فريدة لم تمت من ذات المكان، كأن لم يكن لها وجود من الأساس، كأن ذلك السطح لم يشهد صرخاتها، خوفها وتوسلاتها، كأنه لم يشهد جريمة قتل وكأن تلك الليلة لم تمر عليه من الأساس وأخذ يصرخ بهم، بماذا تحتفلون؟ أتحتفلون بغبائكم؟ أتحتفلون بآلام الآخرين؟ فكلكم خائنون، ما خلق شخص وفي على هذه الأرض، فأي وفاء نتحدث عنه بعد فريدة، مات الوفاء في اللحظة التي قررت فيها أن تخون، هان العمر لحظة هواني عليها، ضاعت معها أجمل المعاني وأسمى المشاعر فلم يعد هناك قيمة لشيء، كلكم قتلة، كل منكم قد قتل شخصا ربما هو الأقرب إليه سواء كان عن قصد أو غير قصد، قتله بكلمة، بنظرة، ببعده عنه، بجفائه ونسيانه وربما قتله بقربه منه وحبه له، وأنا أولكم، أنا من قتلتها، قتلتها من شدة حبي لها، قتلتها بعد أن رأيت خيانتها، قتلتها من هنا، من ذلك المكان تحديدا، ألقيتها من ذلك السور الذي كانت تتشبث به وهي تترجاني ألا أفلت يدها من يدي ولكني أفلتها، أفلتها رغم كل استغاثتها وتوسلاتها، أفلتها رغم جنوني بها وعشقي لها، أفلتها رغم كل السنوات التي جمعت بيننا، قتلتها وشهدت على قتلها أعز صديقاتها فبماذا تحتفلون؟ إنها حياة عبثية شديدة القسوة ونحن مجرد دمى تتسلى بنا كما تشاء.

وظل يصرخ بهم، يصرخ في وجوههم، يصرخ ليسمعه أحد ولكن مهما صرخ ومهما على صوته لم يكن ليسمعه أحد، فلم يهتم به أو يراه

أحد فكان الجميع منشغل بالاحتفالية والرقص والغناء الذي علا ليهتز له ماء البحر أسفلهم، حتى أنه لو كان قتل فريدة ليلتها وسط الاحتفالية ما كان التفت له أحد، فلم يلتفت له أو يسمعه إلا هي، من رأته منذ البداية، من ركضت خوفا منه ليلتها، هي من ذهبت إليه الآن لتمسك بيده، وما أن وضعت يدها في يده حتى أحكم قبضته عليها بشدة فما كان يحتاج في تلك اللحظة إلا لنفس تشعر به، وما كان لأحد أن يشعر به أكثر منها هي.

***

يقولون أن مع سكرات الموت يستعيد المرء أكثر لحظات حياته تأثيرا ربما في مدة لا تتعدى ثوان معدودة ولكنها تمر وكأنها دهر بأكمله وكأنها لن تنتهي أبدا، وكانت فريدة قد فقدت الشعور بجسدها وبحواسها وكانت تغادر الدنيا، بدأت أن ترى نورا أبيض وكأنه يسلط عليها ليمد يده لها وينقذها وقبل أن يطرد جسدها الروح من داخله لتصل إلى ذلك النور ولتتخلص من البرودة التي نهشت عظامها، ولتهرب من الكائنات التي لم تستطع أن تحدد إن كانت أسنانها هي من تنغرز بها أم أنها مخالب برودة الماء؟ ولتنعم بأنفاسها من جديد التي كانت قد حبست رعبا قبل أن يكون جبرا، حتى بدأت أن ترى أمامها صورها وهي تمر سريعا أمام عينها ويسلط عليها الضوء الأبيض البعيد بنوره لتراها بوضوح، فشعرت براحة بالغة، فأنها سكرات الموت فلم يتبق لها سوى لحظات لترحم من كل عذابها، كانت تعرض صورها واحدة تلو الأخرى وتقليبهم لها الأمواج..

"تيجي نزوغ الحصة اللي جاية"

"بحبه يا فريدة من وأنا عيلة صغيرة"

أوعى في يوم تبعد عني يا منير، أوعي أنت في يوم تبعدي عني يا فريدة، يوم ما تبعدي عني أموت"

"قررتوا تسموها أيه؟ نادية هي اللي هتسميها"

"يلا يا نادية، يلا يا فريدة، هنبدأ العرض، الأهالي كلهم في الصالة"

وكان حسن يحتضنها بين الصورة والأخرى فهو من كان يقاسمها كل لحظة في حياتها.

"هي نادية مش موجودة ولا أية؟

هي راحت السوق وراجعة على طول

طيب خلاص أنا شوية وهاجي تاني

معقولة يا فريدة، تعالي هي كلها ربع ساعة وهتكون رجعت"

"سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة يا نادية سنة حلوة يا جميل"

"فكرة أنكوا مالكوش في الدنيا غير بعض، موماركوش غير بعض، مش شايلين هم حاجة"

"معاكي خاتم؟

لا"

"طيب ما تعملولنا العرض تاني

لا طبعا"

صافرات وتصفيق حسن ومنير بعد أن قاما بأداء العرض لهما

"أنا خايفة أوي من كلام الرجل ده

هو مقالش حاجة تخوف

قال، قال يا منير بس أنت مفهمتش"

"بس بردو يا نادية أنت غلطانة، أنا كام مرة قلتلك لازم تهتمي بموضوع الخلفة ده"

"لا لا لا لا تكذبي إني رأيتكما معا ودع البكاء فقد كرهت الأدمع"

"وهذا أيضا سوف يمر"

لتطوي الأمواج آخر صورة لها وهي التقاء عينيها بعين نادية ويفلت حسن يده من يدها لتسقط في الماء، ثم ينتهي حسن من المشاهدة معها وهو مازال يحتضنها لآخر لحظة حتى فارقت الحياة بين ذراعيه ليطمئن أنها انتقلت إلى ذلك النور الأبيض الذي كان في انتظارها ليسلمها إليه طالبا منه أن يرأف بها ويتمنى لروحها أن تهدأ وتدفأ بعد ما عانته في أخر لحظاتها، فكان من القسوة أن يجعله يتمنى أن تجمعه بها مرة أخرى في حياة أخرى.

***